من قضايا البلاغة

حُسْنُ التَّعْلِيلِ

تاريخ ودراسة

دكتور لطفي السيد صالح فرنيل

مدرس البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر

يطلب من

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية . عابدين

القاهرة ـ تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــدمة

الحمد لله رب العالمين نحمده سبحانه وتعالى على عظيم فضله ، وجليل كرمه وجوده امتن على الإنسان بنعمة البيان ، وجعل مناط شرفه وفضله نطق لسانه بالسحر الحلال ، فكان ذلك من بديع الفعال وجميل الخصال .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له اختص العرب بنهاية الكمال فى فن المقال .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أوتى القرآن ومثله معه ، فهو صلوات الله وسلامه عليه أبلغ العرب قاطبة ، وأفصح من نطق بلغة الضاد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

(وبعد)

فإن علم البديع هو أحد العلوم الثلاثة التى انتهت إليها البلاغة العربية واستقرت عليها آراء المتأخرين من العلماء ، ولم يستقل هذا العلم بذاته إلا فى نهاية القرن السابع الهجرى ، وذلك بعد أن فتح العلامة ابن المعتز للناس باب التأليف البلاغى بقوله فى كتابه « البديع » :«قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا ما وجدناه فى القرآن الكريم واللغة وأحاديث رسول الله ﷺ ، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون « البديع » ليعلم أن بشارا ومسلما ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر فى أشعارهم نعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه » .

ولقد كانت البلاغة فى أول عهدها - أى منذ العصر الجاهلى إلى ما قبل عصر

الجاحظ - تعرف بالذوق وتتأتى بالسليقة ضمن عناية الشعراء والأدباء بالأدب ونقده ، ثم عرفت بعد ذلك على أنها : جملة المقاييس الفنية التى يعرف بها سمو النص وجماله ، أو تخلفه وقبحه ، وكان ذلك عندما وضع الجاحظ بذور البلاغة فى كتابه «البيان والتبيين » ، إلى أن جاء دور النضج على يد العلامة ابن المعتز الذى ألفت بعده كتب كثيرة فى البلاغة حتى كانت بدايات التقسيم فى البلاغة على يد العلامة السطاكى ثم الخطيب القزوينى الذى جعل البديع قسيما للمعانى والبيان يزاحمهما فى مجالات الأدب ويتعاضد معهما فى تنميق العبارة وجمال التركيب وإذا كنا نبحث عن مكامن الجمال ونتلمسه فى كل شىء فمن باب أولى لابد وأن يكون ذلك فى منطقنا الذى ننطق به وكتاباتنا التى هى سجل أفكارنا وعنوان عقولنا ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالرجوع إلى فنون بلاغتنا الأصلية لنتلمس فيها عناصر الجمال الحقيقى الذى لا يعدله جمال فى لغة أخرى .

وقد فهم القدماء البديع على أنه درجة من التميز يظفر بها الفنان المطبوع ، وإن كان ما يعنى العلماء من البديع بغض النظر عما يحمل من فنون إنما هو المقياس البديعى للفن أيًا كان اسمه .

وإذا وقفنا أمام القضايا التى تشغلها مسائل البديع فى كتب المتأخرين رأينا عجبا ، وذلك أنه على الرغم من كثرة مسائل هذا العلم وقضاياه فإن طريقة المعالجة لا تحفل بهذه المسائل ولا تقف عندها لبيان قيمتها وكشف أسرارها ، ربما كان ذلك لأنهم لا يعترفون بأن لمسائل علم البديع - حتى وإن سلمنا بأنها محسنات وكفى - أسرارًا يمكن أن تكشف وتجلى ، وعصرنا الحاضر إذا كان من سمته التخصص ، والبيئة التى تحتضن ذلك إنما هى الجامعة التى تهتم بفروع العلم ومسائله اهتمامها بأصوله ، فإن تاريخ أى علم أو فن من الفنون لا يمكن أن يتم إلا ببحث مسائله المفردة وتمحيص أصول هذا العلم وجذورها .

و« حُسْنُ التعليل » مسألة من مسائل البديع وقضية من قضايا بلاغتنا العربية التى تحتاج إلى البحث والدرس لما له من أهمية فى البلاغة وعند العلماء ولدى النقاد ولما له من أثر فى أدب العربية شعرا ونثرا يجب أن يُكشف ويجلى أمام القارىء والسامع والمتكلم .

ثم إن هذا اللون البلاغى يدل على تمكن الأديب - شاعرا أو ناثرا - من اللغة واقتداره على التصرف فيها مع بصره بدقائق المعانى ولطائفها .

وقد درس العلماء هذا اللون ، فدرسه الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه أسرار البلاغة ، كما جاء دراسته مقتضبة فى كتب البلاغة تدور حول ذكر المصطلح والأقسام دون التعرض لشىء من تاريخه وقيمه البلاغية والذوقية ودرسه الأستاذ / حسن سليم طنطاوى فى بحث مختصر تحت عنوان « حسن التعليل فى بلاغتنا العربية» ودرسه أيضا الدكتور / منير سلطان فى كتابه « البديع تأصيل وتجديد » تحت عنوان : « التعليل وطرافة التعليل » ، ولكننى أحببت التعرف على ذلك اللون البلاغى ودراسته تحت المصطلح الذى ذكره به العلماء ومناقشة من حاولوا تغيير مصطلحه إلى مصطلح آخر ،حاولوا إلغاءه من البلاغة وإدماجه فى لون آخر ، وقد قسمت البحث إلى عدة مباحث والتزمت فيه المنهج التالى :

المبحث الأول : « قيمة حسن التعليل البلاغية » : وقدمت هذا المبحث على المبحث الذى يليه لأمهد للقارىء حول أهمية هذا اللون وقيمته فى البلاغة والحاجة إلى دراسته ، وأنه كان موضع اهتمام وإشادة العلماء ، لما يحمل من الصنعة والطرافة والخيال المقرب من الحقيقة ، والحذق والبراعة فى التصوير ، ولأنه لون من ألوان الأقناع فى بلاغتنا العربية .

المبحث الثانى : « حقيقة حسن التعليل ومعناه » : وفيه تم التعرف على حقيقة هذا اللون ولم سمى بذلك ، على هدى من أقوال العلماء وآرائهم ، وبينت أننا لا نبحث فى حسن التعليل عن العلة وإنما عن فنية العلة وبراعتها ، وأن هناك فرقا بين التعليل وحسن التعليل ، وأن العلماء قد وضعوا شروطا لتحقق العلة الشعرية .

المبحث الثالث : « أطوار حسن التعليل » : ويجرى الحديث فيه حول تاريخ حسن التعليل وأنه موجود فى تراث السـابقين وربما وجد عند الجاهليين ولم يصل إلينا ، وأننا فى حاجة لنصل إليه عندهم إلى مراجعة كل ما قالوه وذلك أمر ليس بالهين أو اليسير ، وأن ذلك اللون قد مر بعدة مراحل حتى وصل إلينا بصورته ومصطلحه الذى هو عليه الآن .

المبحث الرابع : « حسن التعليل فى ميزان النقد الأدبى » : وذلك بالتعرف على آراء النقاد فى العلة الشعرية وطريق تحققها ، والوقوف على رأى ابن وكيع التنيسى فى

كتابه « المنصف » وموقفه من ذلك اللون موقفا عقليا صرفا ، وكذلك مع الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى كتابه : « ابن سناء الملك ومشكله العقم والابتكار » ، ومحاولته تغيير المصطلح إلى ما يسمى « بالتعليل البلاغى » أو إنكاره وإدخاله تحت ما يعرف « بالمغالطة » أو « الأحاجى والألغاز » .

المبحث الخامس : « أقسام حسن التعليل » : وتم الحديث فيه حول أقسام حسن التعليل والشواهد التى يتحقق بها كل قسم والإكثار منها للدلالة على مكانة هذا اللون وتنوعه فى الأدب العربى ، ومدى دقة الشعراء وبراعتهم فى استخدامه .

المبحث السادس : « ما يلحق بحسن التعليل » : وبينت فيه العلة الشعرية التى يمكن إلحاقها بحسن التعليل ، وسر عدم كونها من حسن التعليل .

المبحث السابع : « القرآن الكريم .. وحسن التعليل » : وجرى الحديث فيه حول عدم وقوع هذا اللون فى القرآن الكريم ، ولماذا لم يقع فيه ؟ ومناقشة ذلك والرد عليه .

المبحث الثامن : « حسن التعليل والتشبيه » : وذكرت فيه أن حسن التعليل قد يأتى مشتبكا مع التشبيه ومبنيا عليه وبخاصة التشبيه الضمنى وأن ذلك له دلالة قوية فى البلاغة وتأكيد على مدى الأهمية والأصالة التى يحظى بها هذا اللون فى البلاغة العربية .

المبحث التاسع : « حسن التعليل فى الأدب العربى » : وتم فيه بيان مدى هذا اللون عند الكتاب والشعراء ، وكذلك مدى اهتمام الأدباء به ، وما ذلك إلا لأن الأدب العربى صورة لتفاعل علوم العربية وقضاياها ، وبخاصة علم البلاغة الذى هو عبارة عن فكرة واضحة ترتبط بالأدب والنقد وفن القول .

وأخيرا فالقديم قادر على الحياة ، وحياته إنما تكمن فى عرضه على العقول وربطه بالتجديد ، وأول التجديد - كما يقول العلماء - هو أن نقتل القديم بحثا ، ولا يتأتى ذلك إلا من المختصين بذلك العلم أو المشتغلين به وذلك حتى يكون حكمهم فى دائرة الدراية والرواية ، والنقل والعقل ، والشرح والتفسير والتأويل فى ضوء الحضارة العربية الإسلامية ، وقضية التجديد فى البلاغة هذه لا ترفض أى

اقتراح أو درس أو توجيه أو رأى ، ما دام يصدر عن علم وموضوعية ودقة نظر وإعمال فكر وإرهاف حس وصدق نية[1] .

وما حاولته جاهدا فى هذا البحث ما هو إلا دراسة لفن من فنون البلاغة ولون من ألوان بديعها ، حاولت تجلية صورته ، بإزالة الغامض منها ولعلى بتلك المشاركة المتواضعة أكون قد أسهمت فى إلقاء بعض الأضواء على قضية من قضايا بلاغتنا العربية الأصيلة ، ولا أدعى بذلك . أننى قد قلت الكلمة الأخيرة ، أو وفيت على الغاية ووصلت إلى النهاية ، وإنما هى بداية لأعمال جادة يقوم بها النشطون من حراس العربية ، الزائدين عن حياضها ، الكاشفين لكنوزها المطمورة .

هذا بالله التوفيق . .

المؤلف

د . لطفى السيد صالح قنديل

---

(١) ينظر : سر العربية وبيانها ص ٢٥ د . محمد بركات حمدى أبو على . طبعة دار البشير - الأردن .

المبحث الأول

قيمة حسن التعليل البلاغية

من قضايا البلاغة وصور البديع التى تحمل ألوان البراعة فى القول والافتنان فى الكلام ، وتدل دلالة قوية على شدة التمكن من اللغة والبصر بدقائق المعانى ولطائفها[1] ، ذلك اللون البلاغى المعروف عند علماء البلاغة باسم «حسن التعليل» ، وتكمن قيمة هذا اللون البلاغية فيما أسهم به من قسط وافر فى إثارة الخيال ، وتوضيحه للمعنى المخيل بتقريبه من الحقيقة ، وتقريره فى ذهن المتلقى بتحسين الصورة القولية وجعلها مقبولة .

وإذا كان الإبداع فى أيسر تعريف له : هو القدرة على التخيل ... القدرة على عبور حواجز العرف والتقاليد السائدة فى رؤية الأشياء[2] ، فإن حسن التعليل يعد فى الذروة من ذلك ، بل إنه ليعد دليلا من أدلة القدرة على الإبداع ، لأن الشخصية المبدعة إنما تعطى - إذا كانت ذات قدرة على الولوج فى صميم الحياة والآخرين - نبضا حيًا يختلف عن الكلام السطحى الشكلى المفكك ... وذلك راجع إلى أن هؤلاء المبدعين عارفون لزوايا خاصة يتلامح حولها رفيف لا يرى إلا بعين مدققة وحس مرهف[3] .

وهذا اللون مستملح لما فيه من الظرافة والطرافة والإعجاب والإغراب ، وكذلك لما فيه أيضا - من حسن التخير لمواقعه اللطيفة مع شدة احتياجه إلى الرفق والحذق[4] ، وتلك كما يقول العلماء - صورة من صور الإقناع

---

(١) ينظر علوم البلاغة ص : ٣٥١ المراغى .

(٢) ينظر مقال : العملية الإبداعية من منظور تأويلى ، مجلة فصول : مجلد (١٠) العدد : ١ ، ٢ ص ١٠ سحر مشهور .

(٣) ينظر جماليات الأسلوب (٢) ص : ٢٠ د. فايز الداية .

(٤) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ .

البلاغى[1] ، التى تدل دلالة أكيدة على أن هذا اللون إذا ما أحسن استخدامه ، واستعمل الاستعمال المشروع بأن لا يكون مصطنعا لذاته ، بل لما يمكنه من انسجام أدائه اللفظى مع مضمونه الوجدانى ... كانت له وظيفته الحيوية فى إرهاف الشكل حتى يكون أكثر حملا للمضمون وأجود انسجاما مع ظلاله الدقيقة ، وأقدر على إثارته فى وجدان قارىء الأدب إثارة سليمة صحيحة لا سقم فيها ولا ميوعة ولا تظرف ولا تنطع[2] .

فهو نمط تركيبى فى مقامه أصيل له قسطه الوافر المهم فى الأدب لا يكون لغيره ما كان له .

وإذا كانت البلاغة - كما يقول العلماء - هى أن يبلغ المتكلم من نفس سامعه من اقتناع : ترغيب أو ترهيب ، تشويق أو تعجيب ، إدخال سرور أو حزن بنقص أو زيادة ، مدح أو ذم إلى غير ذلك ، فمما لا شك فيه أن « حسن التعليل » من ألوان البلاغة التى تفى بذلك الغرض ومما تتوشج العلاقة وتتوثق الصلة بينها وبينه، وذلك لأن البلاغة لا تسأل عن جوهر العلة وغايتها، وإنما تسأل عن «التعليل» أى كيفية صوغ العلة ، عن أسلوب عرض العلة وطريقة اكتشافها والربط بينها وبين المعلول ، البلاغة تسأل عن كيفية توصيل مفهوم العلة إلى المخاطب ، وعن البراعة فى تصوير العلة والمعلول فى إطار من التناسب[3] .

وإن هذا ليعد - أيضا - أثرا من آثار المعانى الثانية فى الأدب ، لأنه لا يوجد نص .. على تلك الهيئة إلا وهو مشحون بما يدل على التجربة ومثير لكوامن الإحساس فى القارىء منقولة من نفس الأديب عن طريق الموصل الجيد وهو النص[4] .

---

(١) ينظر دراسات فى البلاغة ص ١٤ ، ١٨ د. محمد بركات حمدى أبو على ، ط دار الفكر - عمّان - الأردن .

(٢) ينظر الشعر الجاهلى ١ / ١٧ د. محمد النويهى .

(٣) ينظر البديع تأصيل وتجديد ص : ١٨٣ د. منير سلطان ، ط منشأة المعارف بالاسكندرية .

(٤) ينظر المعانى الثانية ص : ٥١ . د. فتحى أحمد عامر ، ط . منشأة المعارف . الإسكندرية .

من أجل ذلك كان هذا البحث جديرا بالبحث والدراسة وبيان حقيقته ومعناه والأطوار التى مر بها فى نشوئه حتى استوى فنا له أثره فى الأدب العربى .

وقد أشار الإمام عبد القاهر الجرجانى إلى أهمية هذا اللون وأولاه العناية - وإن لم يحرره بذلك الاسم - عند كلامه على التشبيه وعقده : « فصلا فى الأخذ والسرقة وما فى ذلك من التعليل وضروب الحقيقة والتخييل »[1] ؛ وهو فى ذلك يحاول إظهار الفرق بين المعانى العقلية والمعانى التخييلية ، وإرجاعه اللون الثانى منها - وهو المعانى التخييلية - إلى الحذق والبراعة فى التصوير[2] .

كما تحدث عنه - كذلك - عند الكلام على فنية ذلك اللون وبراعته بقوله : « فمنه ما يجىء مصنوعا قد استعين عليه وبالرفق والحذق حتى أعطى شبها من الحق ورونقا من الصدق باحتجاج يخيل وقياس يصنع فيه ويعمل ومثاله قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة ، وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه وعظم نفعه، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم ، نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، فالعلة فى أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب، وتمنعه من الانسياب، وليس فى الكريم والمال شىء من هذه الخلال »[3] .

فعبد القاهر بهذا يشرح الفرق بين العلة الحقيقية المنطوية فى الأشياء ، والعلة الشعرية أو التخييلية التى يبتدعها الشعر ، وكأن الشعر يخلق الأشياء خلقا آخر ، وتودعها أوصافا أخرى ، فالمكان العالى السيل حرب له لسموقه وارتفاعه واستغنائه ، وكأن العلو فيه ترفع وكبرياء وإباء ، وهذا هو المعنى الشعرى أو الغلالة الخيالية التى يلقيها الشعر أو الخيال الشعرى على الأشياء .

وقد ورد فى آثار العلماء - بعد الإمام عبد القاهر - ما يوضح أثر هذا اللون فى

---

(١) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ عبد القاهر الجرجانى

(٢) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٣٦ ، معجم مصطلحات النقد العربى القديم ١ / ٣١٣ د . أحمد مطلوب .

(٣) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ ، ١٢٩ عبد القاهر الجرجانى .

الأسلوب ونفس المتلقى فها هو العلامة العلوى يقول : ... من أجل أن إثباته الشيء معللا آكد فى النفس من إثباته مجردا عن التعليل »[1] ، وكذلك ما ورد من قول الإمام الزركشى : إن ذكر الشيء معللا أبلغ من ذكره بلا علة ، لوجهين :

أحدهما : أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول ...

الثانى : أن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة بخلاف غيرها ..... وغالب التعليل فى القرآن الكريم على تقرير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى وهو سؤال عن العلة »[2] .

وقد أرجع العلماء وجه الحسن فى هذا اللون البلاغى إلى أنه يظهر ما ليس بواقع، متخيلا كالصحيح الواقع ، وعدوا ذلك شرطا محسنا لا اعتبار موجب له[3] .

وإذا كان القرآن الكريم يعلل ، والفيلسوف يعلل ، والعالم يعلل ، والفقيه والفنانُ ، ولكل تعليل أدواته ومنهجه وطابعه ونتائجه[4] ، فإننا نلحظ أنه بينما يلتزم الفيلسوف والعالم والفقيه بأقيسة متعارف عليها ويدورون فى فلكها ، يخرج الفنان المبدع من هذا الإطار المحدد ليسبح فى أفلاك من صنعه وآفاق من خياله[5] ، وهذا بعينه هو الاختراع والإبداع الفنى والشاعر فى ذلك إنما يحلق فى سماء الخيال ويتجرد من هذا العالم الذى يجعل لكل شيء سببا منطقيا معقولا ، ويتخلص من قيود الصدق ثم يهبط إلى سلسبيل الكذب[6] - الفنى - فيغترف منه غرفة بيده ثم يخرج بين ذلك الخيال البارع ، وهذا الكذب الرائع فتتخلق صورة من أجمل الصور الذهنية يخفف فيها الخيال من غلواء الكذب - أى الفنى - حتى يحاول أن يجعله مباحا ،

---

(١) ينظر الطراز ٣ / ١٣٨ ، ١٣٩ العلوى اليمنى .

(٢) ينظر البرهان ٣ / ٩١ للزركشى ، معجم المصطلحات البلاغية ١ / ٣٠١ د. أحمد مطلوب .

(٣) ينظر الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ .

(٤ ، ٥) ينظر البديع فى شعر شوقى ص / ٢٦٧ د. منير سلطان .

(٦) ليس المقصود بالكذب هنا معناه الأخلاقى وإنما المقصود به ما أشار إليه الإمام عبد القاهر بقوله فى التخييل : « هو الذى لا يمكن أن يقال إنه صدق ، وإن ما أثبته ثابت وما نفاه منفى ... » (أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨) وكذلك قوله : « وستمر بك ضروب من التخييل هى أظهر أمرا فى البعد عن الحقيقة تكشف وجهه فى أنه خداع للعقل وضرب من التزويق » (أسرار البلاغة ٢ /) .

ويخفف الكذب من غلواء الخيال حتى يحاول أن يجعله حقيقة مسلمًا بها فيرتاح لذلك العقل وتطمئن النفس ، فالذى يخفف الكذب هو الخيال الجميل والقدرة الفائقة على اختراع المعانى المستظرفة[1] .

فسر الحسن والروعة فى « حسن التعليل » إنما يرجع إلى الصنعة فى الخيال والطرافة والإيهام بالكذب من الأديب المبدع الذى يرينا ما ليس بواقع متخيلا كالصحيح الواقع ، وهذه القدرة الفائقة على الاختراع وتلك الرؤية الخيالية فى الإبداع إنما تنسب إليه لأنه هو وحده القادر على الاحتيال للحجة باحتجاج يخيل وقياس يصنع فيه ويعمل[2] .

* * *

(١) ينظر حسن التعليل ص ٦ ، ١٠ حسن سليم طنطاوى ، ط المنيا .
(٢) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ ، ١٢٩ .

المبحث الثانى

حقيقة حُسْنُ التعليل ومعناه

لابد من معرفة حقيقة هذا الفن والمعنى الذى يدور حوله ، ولا يكون ذلك إلا بالوقوف على آراء أهل البصر والفقه بهذه الفنون البلاغية من العلماء المختصين ، وذلك حتى تتضح المعالم الفنية لهذا اللون البلاغى والغرض الذى من أجله يجىء فى كلام البلغاء : فقد عرفه العلامة العلوى بقوله : هو « عبارة عن أن تقصد إلى حكم من الأحكام فتراه مستبعدا من أجل ما اختص به من الغـرابة واللطف والإعجـاب أو غير ذلك فتأتى على جهة الاستطراف بعلة مناسبة للتعليل فتدعى كونها علة الحكم لتوهم تحقيقه وتقريره نهاية التقرير . . . »[1] .

وهذا التعريف - من وجهة نظرى - يعد أسد التعريفات وأوضحها فى بيان حقيقة أسلوب « حسن التعليل » ، وسأعرض بعد ذلك لبقية التعريفات التى ذكرها العلماء .

ثم إن من ينعم النظر يجد أن هناك علاقة وثيقة بين هذا المعنى البلاغى لحسن التعليل ، والمعنى اللغوى الذى يدور حوله التعليل من التلهى والتجزى وبيان السبب[2] وذلك أننا فى البلاغة لا نسأل عن جوهر العلة وغايتها ، وإنما نسأل عن كيفية توصيل مفهوم العلة إلى المخاطب ، وعن البراعة فى تصوير العلة والمعلول فى إطار من التناسب[3] .

● **نقد وتسديد :**

تعرض صفى الدين الحلى لبيان حقيقة هذا اللون فعرفه بقوله : « والتعليل هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع أو متوقع ، فيقدم قبل ذكره علة وقوعه لكون رتبة

(١) ينظر الطراز ٣ / ١٣٨ .

(٢) ينظر فى ذلك : الصحاح ، أساس البلاغة ، لسان العرب مادة : (علل) .

(٣) ينظر البديع : تأصيل وتجديد ص : ١٨٣ .

العلة أن تتقدم على المعلول ، وقد يتقدم المعلول على العلة بحسب ترتيب الكلام ، ويكون التقدير تقديمها أصلا »[1] .

وجاء بعده ابن حجة الحموى وتقبل طريقه فى التعريف لحسن التعليل ، ولكن بالنظر الدقيق نرى أن ذلك التعريف منهما يمكن إطلاقه على مطلق التعليل لحكم من الأحكام ، ولم يقل أحد من العلماء بدخول هذا الفن وهو التعليل فى علم البديع كما لا يخفى على أهل البلاغة البصراء بألوانها وفنونها فكان هذا التعريف منهما لحسن التعليل غير دقيق ولا سديد .

وكان ابن أبى الإصبع المصرى قد سبقهما إلى ذلك التعريف أيضا وخلط فيه بين التعليل وحسن التعليل ، كما هو واضح من الأمثلة والشواهد التى حاول بها تفسير تعريفه لما أسماه « بالتعليل »[2] .

وقد عرَّف العلامة الخطيب القزوينى هذا اللون بقوله : « ومنه حسن التعليل : وهو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقى ، لأن الوصف إما ثابت قصد بيان علته أو غير ثابت أريد إثباته »[3] ، وصار هذا التعريف هو الأساس لمن جاء بعده ، وذلك لو جازت عبارته واختصاره لأقسام هذا اللون وأنواعه .

ثم يعرفه العلامة الرعينى - أيضا - تعريفا يكشف فيه عن حقيقة حسن التعليل وشروطه والفائدة المرجوة منه فيقول : « هو أن تستنبط للشىء علة مناسبة غير حقيقية مخالفة لعلته الأصلية ، وشرطها أن تكون على وجه لطيف يحصل بها زيادة فى مقصودك من مدح أو غيره »[4] ، وكان قد سبقه إلى ذلك التعريف العلامة شهاب الدين محمود الحلبى[5] .

● **الفرق بين التعليل وحسن التعليل :**

ذكر العلماء التعليل وحسن التعليل ، فهل هناك من فرق بينهما ؟ .

---

(١) ينظر : شرح القافية البديعية ص : ٢٨٣ وما بعدها - صفى الدين الحلّى .
(٢) ينظر : تحرير التحبير ص ٣٠٩ . ابن أبى الإصبع المصرى .
(٣) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ .
(٤) ينظر : كتاب طراز الحلة ص : ٥٦٣ ، العلامة الرعينى .
(٥) ينظر : حسن التوسل ص : ٥٥ .

وإنى أرى أن :

● **التعليل** : فى ضوء ما قاله العلماء أعم من حسن التعليل ، وذلك لأنه يشمل التعليل وحسن التعليل ، وقد جاء تعريف العلماء له بقولهم : « هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع أو متـوقع فيقدم قبل ذكره علة وقوعه لكـون رتبة العلة أن تتقدم على المعلـول كقوله تعالى : ﴿ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

ومثاله من الشعر قول البحترى :

ولو لم تكن ساخطا لم أكن أذم الزمان وأشكو الخطوبا

وقد يتقدم المعلول على العلة بحسب ترتيب الكلام ويكون التقدير تقديمها أصلا، كقول ابن رشيق :

سألت الأرض لم جعلت مصلّى ولم كانت لنا طهرا وطيبا
فقالت غير ناطقة لأنى حويت لكل إنسان حبيبا[2]

ولعل فى ذلك ما يؤكد عدم دقة صفى الدين الحلى وابن حجة الحموى فى تعريفهما لهذا اللون البلاغى كما مَرَّ آنفا .

وعلى ذلك فإنه يمكن القول بأن :

التعليل : هو تلك الطريقة الفنية التى يعرض بها المبدع العلة فى إحداث ذات الحدث من خلال ذاته فى إطار من التناسب[3] ، سواء حمل إلينا ذلك العرض طرافة فى التعبير وتخيلا فى العلة أم لا ، بأن كانت العلة حقيقية .

● **أما حسن التعليل** : فهو كما أوضح العلماء استنباط علة للشىء غير حقيقية مخالفة لعلته الأصلية ، وشرطها أن تكون على وجه لطيف يحصل بها زيادة فى المقصود من مدح أو غيره »[4] ، وقد أفاد العلماء أن ذلك يجىء على وجهين :

---

(١) سورة الأنفال : آية رقم ٦٨ .

(٢) ينظر : تحرير التحبير ص ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، الكافية البديعية ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٣) ينظر : البديع تأصيل وتجديد ص : ١٨٣ .

(٤) ينظر: حسن التوسل ص ٥٥ ، طراز الحلة ص ٥٦٣ ، نفحات الأزهار على نسمات الأسحار ص : ١٦٨ عبد الغنى النابلسى .

الأول : أن يأتى التعليل صريحا إما باللام كقول ابن رشيق :

سألت الأرض لِمَ جعلت مصلى ولِمَ كانت لنا طهرا وطيبا

فقالت غير ناطقة لأنى حويت لكل إنسان حبيبا

وذلك حيث أحسن الشاعر فى الاستخراج وألطف فى التعليل ، فلأجل ما قاله كان ذلك علة فى كونها طهورا ومسجدا .

الثانى : أن لا يكون التعليل صريحا فى اللفظ وإنما يؤخذ من جهة السياق والنظم والمعنى كقول بعض الشعراء :

فإن غادرت الغدران فى صحن وجنتى فلا غرو لم يزل منه وابل يهمى[1]

● **شروط حُسْن التعليل :**

أوضح أهل العلم أنه لابد لتحقيق « حسن التعليل » من ثلاثة شروط ، وذلك حتى يكون إثبات العلة فيه من البديع :

(**أولا**) أن تكون العلة غير حقيقية مما يجعلها فى حاجة إلى مزيد نظر وتأمل

(**ثانيا**) أن تكون على وجه لطيف يحصل بها زيادة فى المقصود من مدح أو غيره ، أى أنها تكون نتاج نظر دقيق فى الأشياء والأمور .

(**ثالثا**) أن تكون على سبيل الإصرار والقطع وأنها هى العلة ولا سبيل سواها ، وذلك لأنها لو كانت على سبيل الشك أو الظن لخرجت إلى « ما يلحق بحسن التعليل »[2] .

فحسن التعليل إذن : هو كل صياغة فنية تسوغ وقوع الحدث من وجهة نظر صاحبها تسويغا يهدف فى المقام الأول إلى الاستطراف والملاحة .

* * *

(١) ينظر: الطراز ٣ / ١٣٩ ، ١٤٠ ، حيث أثبت الغدران فى صحن وجنته بعلة أن الممدوح وابل يهمى والوابل الهامى علة كذلك فى الغدران .

(٢) ينظر : المطول ص ٤٣٦ .

المبحث الثالث

أطوار حُسْن التعليل

لابد من تتبع تاريخ هذا الفن والأطوار التى مر بها حتى استوى مع بقية الفنون البلاغية الأخرى فى تكوين وتأليف دوحة البلاغة الباسقة الأغصان ، الوارفة الظلال، الدانية الجنى والثمار .

وسأتتبع - بعون الله تعالى - ذلك محاولا - قدر الطاقة - استكناه حقيقة وجوده ومشيراً إلى جذوره الأولى عبر عصور الأدب لدى الشعراء والأدباء ، وفى عصور التدوين والتأليف البلاغى .

* * *

(أولا) فى العصر الجاهلى

هل توجد لهذا الفن أصول فى هذا العصر ؟ أم أنه وجد بعد ذلك ونما ؟

فى الحقيقة لا يمكن القطع بأن هذا الفن لم يوجد فى ذلك العصر مطلقا ، لأن القول بذلك يتطلب من الباحث الاطلاع على كل ما حدث وقيل فى ذلك العصر من نتاج أدبى وهذا بالطبع مستحيل لأنه شىء فوق الطاقة والجهد الفردى .

وإنما يمكن القول بأنه ربما لم يوجد - على الأغلب - بصورته التى هو عليها الآن لدى علماء هذا الفن ، وذلك على ضوء الأسباب الآتية وحسبما أشار إليها بعض العلماء والباحثين والتى من أهمها :

١ - إن العرب كانوا بفطرتهم يميلون إلى الصدق فى شعرهم ونثرهم عند نقل أحاسيسهم وتصوير ما يجرى حولهم وما يعن لهم من أمور الحياة وشئون الطبيعة المحيطة بهم ، وما كانوا يلجأون إلى الكذب ، بل كانوا لا يمدحون الرجل إلا بما هو

فيه ، بل ولا يذمون أحدا بصفة ليست له[1] ، ولذلك كانت لهم قصائد عرفت بالمنصفات وقد اعترف بذلك الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » ، وابن سلام فى كتابه : « طبقات فحول الشعراء » .

وحسن التعليل إيهام بالكذب - كما يرى الإمام عبد القاهر - للاعتماد فيه على الصنعة والخيال ، بل يعد من أبعد حدود الكذب الفنى الذى يلجأ إليه الشاعر باحتجاج يخيل وقياس يصنع فيه ويعمل[2] ، والشعراء الجاهليون ما كانوا يميلون إلى ذلك لما جبلوا عليه من الصدق فى الخيال[3] .

٢ - الجاهليون ما كانوا يصنعون إلا المشاهد المحسوسة ولا يتكلمون إلا فى الواقع الملموس ، فهم كانوا إذا لجأوا إلى تشبيه وأجادوا فيه ، فإنما كان مرد ذلك عندهم إلى أنهم يعيشون عالم الحس والمشاهدة ، وذلك لأن من أهم الخصائص التى تميز الشعر عندهم الانطباع البصرى[4] ، أى « إنهم يلتمسون موادهم الفنية من حياتهم القريبة لا يكدّون أذهانهم كثيرا ولا يوغلون فى التنقيب عن الصور وإقامة العلاقات بين ما تقع عليه حواسهُم وما لا تقع[5] .

فلم تكن عندهم القدرة مطلقا على الغوص فى بحار المعانى العميقة والأخيلة الغريبة الغزيرة التى ينتزعون منها شيئا »[6] ، فالخيال عند العربى القديم كان يعتبر

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن ص ١٣٤ الباقلانى ، تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر ط بيروت سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

(٢) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ ، ١٢٩ ويقول الإمام عبد القاهر : « وستمر بك ضروب من التخييل هى أظهر أمرا فى البعد عن الحقيقة تكشف وجهه فى أنه خداع وضرب من التزويق » ، ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٦ .

(٣) ينظر : حسن التعليل ص : ١٠ ، ١١ .

(٤) ينظر : حسن التعليل ص : ١١ والشعر الجاهلى ١ / ١٠٨ د. محمد النويهى ، العصر الجاهلى ص ٢١٩ . د. شوقى ضيف .

(٥) ينظر : الرحلة فى القصيدة الجاهلية ص : ٦٥ د. وهب رومية . مؤسسة الرسالة بيروت .

(٦) ينظر : العصر الجاهلى ص : ٢٢٠ ، ٢٢١ د. شوقى ضيف ، ط دار المعارف ، مصر .

حقيقة فى أول نشأته ولا يعد خيالا بالمعنى المتعارف لدى علمـاء النقد والبـلاغة[1] و« حسن التعليل » اختراع جميل وخيال رائع قائم على الغوص فى المعانى وإيجاد العلاقات بين ما تقع عليه الحاسة وما لا تقع باحتجاج يخيل وقياس يصنع فيه ويعمل وذلك مغاير لطبيعة العربى الذى جبل على الصدق فى الخيال .

ومن أجل ذلك يمكن القول :

(أ) إن الباحث فى كل كتب القوم التى دار التأليف فيها حول ألوان البديع وأصباغه يجد أنها لم تستشهد لحسن التعليل بشىء من الشعر الجاهلى[2] ، ومن المعلوم بالضرورة لدى العلماء أن الشعر الجاهلى أقوى من غيره فى الاستشهاد لأبواب عديدة من أبواب البلاغة ، وذلك كما فى باب التجريد ، واستشهادهـم بقـول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحـل وهل تطيق وداعا أيها الرجل[3]

وكذلك استشهادهم فى باب المبالغة المقبولة ، بقول امرىء القيس :

فعادى عداء بين ثـور ونعجة دراكا فلم ينضـح بماء فيغسل[4]

إلى غير ذلك مما هو مبثوث فى كتب القوم .

(ب) الناظر فى كتب القدماء ممن ألفوا فى البلاغة : كأبى هلال العسكرى وابن رشيق القيروانى يجد أنهم لمن يذكروا ذلك النوع المسمى بحسن التعليل مع أنهم ذكروا غيره من الفنون الأخرى، ثم إن المتأمل فى كتاب « الصناعتين » ، لأبى هلال العسكرى ، ليجد أن « حسن التعليل » قد وقع فى موضعين من الكتاب ، ومع ذلك لم يشر إليه ولم يذكره بمعناه الاصطلاحى .

---

(١) ينظر : الخيال عند العرب ص ٢٣ أبو القاسم الشابى .

(٢) ينظر فى ذلك : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ ، المطول ص ٤٣٦ ، الكافية البديعية ص : ٢٨٣ ، طراز الحلة : ٥٦٣ ، نفحات الأزهار ص : ٦٨ ، خزانة الأدب ٢ / ٣٩١ الحموى .

(٣) ينظر : الإيضاح بغية الإيضاح ٤ / ٤٦ . (٤) السابق ٤ / ٤٨ .

● **الموضع الأول** : فى قول الشاعر :

أتتنى تؤنبنى بالبكـــــــاء فأهلا بها وبتأنيبهـــــــا
تقول وفى قولها حشـــــمة ترانى بعين وتبكى بهـــــا
فقلت إذا استحسنت غيركـــم أمرت الدموع بتأديبهـــــا

يقول أبو هلال فى تعليقه على تلك الأبيات : « ترانى بعين وتبكى بها حسن الوقع جدان[1] » ، والمتأمل للبيت الثالث من هذه الأبيات يرى أن حسن التعليل قد وقع وفيه ، كما يقول الخطيب القزوينى : « وذلك أن العادة فى دمع العين أن يكون السبب فيه إعراض الحبيب أو اعتراض الرقيب ونحو ذلك من الأسباب الموجبة للاكتئاب لا ما جعله من التأديب على الإساءة باستحسان غير الحبيب »[2] ، فأبو هلال لم يشر إلى شىء من ذلك فى تعليقه .

● **الموضع الثانى**: فى عقد أبى هلال فصلا بعنوان : « فى الاستشهاد والاحتجاج » فى كتابه المذكور ويعرف ذلك الفصل بقوله : « هو أن تأتى بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته »[3] ، ويسوق أمثلة منها قول الشاعر :

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخـــوافى قوة للقـــوادم[4]

والملاحظ أن جميع ما ساقه أبو هلال من الأمثلة فى هذا الباب موزع بين ما عرف : « بحسن التعليل » و « التشبيه الضمنى » و « المذهب الكلامى »[5] ، ونبه أبو هلال على التشبيه فى أمثلة هذا النوع فقال « ويدخل أكثر هذه الأمثلة فى التشبيه أيضا »[6] ، ومع ذلك لم يذكر مصطلح « حسن التعليل » ولم يشر إليه .

ومثل ذلك - أيضا - ما ضمنه القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى وهو ينتقد

---

(١) ينظر : الصناعتين ص : ٤٦٨ .

(٢) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٥ ، وفيه رواية أخرى للبيت الثانى :
تقول وفى قولها حشمة أتبكى بعين ترانى بها

(٣) ينظر : الصناعتين ص ٤٣٤ .

(٤) الفاء للسببية وهى تفيد التعليل ، وإن لم يفصح أبو هلال عن ذلك .

(٥) ينظر : الصبغ البديعى ص : ١٧٤ . د. أحمد موسى .

(٦) ينظر : الصناعتين ص : ٤٣٧ .

المتنبى فى كتابه « الوساطة » فيقول : فهذا مقدار اختراعه وهذه طريقة ابتداعه فإن زاد عليه وتجاوز قليلا اضطر إلى تعقيد اللفظ وفساد الترتيب واضطراب النسج ، فصار خيره لا يفى بشره ، وجرمه يزيد على عذره ، ثم لم يظفر فيه بمعنى شريف وإنما هو الإفراط والإغراق والمبالغة ، ويذكر نقدت أمثلة منها قول المتنبى :

لم يحك نائلك السحاب وإنما حُمَّت به فصبيبها الرحضاء[1]

ويعلق على هذا البيت قائلا : « وهل زاد على أن جعل السحاب حم فأفرط »[2] ، والمتأمل فى هذا التعليق يجد أنه منصب ومركز على الإفراط فى الاستعارة، وهو أن جعل السحاب يصاب بالحمى، وليس لذلك صلة بحسن التعليل ، مع أن البيت من شواهده المعروفة عند علماء البلاغة ، فهو لم يتعرض أيضا - لحسن التعليل ولم يشر إليه .

● **شبه وردّها :**

توجد شواهد فى الشعر الجاهلى توهم أن فيها « حسن تعليل » ، وأنه يمكن الاستدلال بها على وجود هذا اللون البديعى فى الشعر الجاهلى ، ولكن من يدقق النظر يجد أنها ربما تكون ليست من « حسن التعليل » وإنما مما يلحق به ، أو أنه يوجد شك فى نسبتها إلى الشعر الجاهلى ، من ذلك على سبيل المثال :

١ - قول النابغة الذبيانى فى مدح بنى غسان :

إذا ما غزوا بالجيش حلّق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجيشان أول غالب[3]

والناظر فى هذين البيتين يرى أنه لا يتحقق فيهما « حسن التعليل » لأن الشاعر قال : « إذا » وهى تفيد الشرط والتعليق ، وحسن التعليل - كما هو معلوم - لابد

---

(١) هذا البيت من الشواهد المشهورة لحسن التعليل عند علماء البلاغة ، ذكره الإمام عبد القاهر عند حديثه عن التخييل المعلل ، والخطيب القزوينى فى كلامه على حسن التعليل ، ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٣٨ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ .

(٢) ينظر : الوساطة ص : ١٨٠ ، ١٨١ القاضى الجرجانى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٣) ينظر : ديوان النابغة الذبيانى ص : ١٠ نشر المكتبة الثقافية بيروت .

وأن يدعى الشاعر فيه تحقق العلة ، ثم إن الشواهد التى أوردها العلماء فى استشهادهم لحسن التعليل خالية من « إن ، إذا ، لو »[1] ، فقول النابغة هذا لا يعد من حسن التعليل وإنما مما يلحق بحسن التعليل .

بل ذهب العلماء إلى رفض أن يكون ما فيه « كأن » ، وما بنى على التعجب ، من « حسن التعليل » وألحقوهما به ، وذلك لأن الأمر فيهما مبنى على الشك[2] .

وربما يعترض معترض بأن « لو » قد وردت فى بيت شعرى يعد من الشواهد البارزة لحسن التعليل فى كتب البلاغة ، وهو البيت الفارسى الذى ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

ولكن من يتأمل هذا البيت يجد أن « لو» فيه ليست لامتناع الجواب لامتناع الشرط بل للاستدلال على انتفاء الشرط لأن حملها على الأول يجعل خدمته علة لانتطاق من الجوزاء ، وهذا غير مراد ، فهى إذن امتناعية فيها معنى النفى وهى داخلة على « لم » النافية ، ونفى النفى إثبات فلا شرط إذن ولا تعليق[3] .

وبهذا يتضح عدم وجود حسن التعليل فى قول النابغة السابق ، وإنما هو مما يلحق به .

٢ - جاء ما يفيد - أيضا - وقوع حسن التعليل فى الشعر الجاهلى وذلك فى قول بشر بن عوانة العبدى فى قصيدته التى أولها :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا[4]

وذلك حين مخاطبته الأسد وقوله :

نصحتك فالتمس يا ليث غيرى طعاما إن لحمى كان مرّا[5]

---

(١) ينظر : حسن التعليل ص ١٥ .

(٢) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ ، ٥٧ ، وهذان البيتان من قصيدة مشهورة للنابغة ولو كان فيهما حسن تعليل لاستشهد بهما العلماء بل ولقدموا صاحبهما على المتنبى .

(٣) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ ، حسن التعليل ص ١٥ .

(٤) ينظر : شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى ص : ٤٦٢ . محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٤٢ هـ .

(٥) السابق ص ٤٧٣ ، وفى البيت رواية أخرى ذكرها شارح المقامات وهى :

نصحتك نصح ذى شفق فحاذر مرامىّ لا تكن بالموت غرّا

هذا البيت فيه حسن تعليل ، ومع ذلك لا يعد من شواهد حسن التعليل فى الشعر الجاهلى وذلك لأن بشر بن عوانة إنما جاء ذكره فى المقامة البشرية لبديع الزمان الهمذانى فى العصر الجاهلى .

ومن المعلوم لدى النقاد والدارسين أن المقامات إنما هى قصص خيالى من اختراع بديع الزمان ، وهى محشوة بمسائل غاية فى الغرابة ، و « بشر » هذا ليس إلا شخصا وهميا جعله بديع الزمان بطلا لروايته تلك ، فالقصة من أولها إلى آخرها مختلقة ، كما أن بشرا هذا لم يرد له ذكر فى كتب الشعر [1] .

ثم إن من يتأمل قصيدته تلك يجد أنها لا تتفق مع روح العصر الجاهلى وملامحه ، وإنما تتفق مع روح وملامح العصر العباسى .

وبذلك لا يكون هذا البيت أيضا من شواهد « حسن التعليل » التى وقعت فى العصر الجاهلى .

٣ - ورد بيتان فى معلقة عنترة فى إحدى روايات الديوان وهما :

ولقد ذكرتُك والرماح نواهـــــل منى وبيض الهنـــد تقطر من دمى

فوددتُ تقبيل السيوف لأنهـــا لمعت كبارق ثغرك المتبســـم [2]

وهذان البيتان أيضا لا ينهضان دليلا على وقوع هذا اللون الفنى فى الشعر الجاهلى وذلك لما يأتى :

(أ) وقوع الاختلاف فى روايتهما ، حيث رواهما بعض العلماء ، ولم يروهما البعض الآخر كالتبريزى والقرشى والزوزنى ، فوقع الاختلاف فى روايتهما .

(ب) وقوع العلة فى هذين البيتين ليس أيضا على سبيل الإصرار والقطع كما هو شرط العلة فى حسن التعليل وذلك لأن الود من الأمنية [3] وهى تكون للأمر المستحيل الوقوع أو البعيد المنال .

---

(١) ينظر : فى ذلك : البيان والتبيين للجاحظ ، طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ، طبقات فحول الشعراء لابن قتيبة الموشح للمرزبانى ، شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ، بلوغ الأرب للنويرى ، حسن التعليل ص ١٥ . ١٦ .

(٢) ينظر شرح ديوان عنترة ص ١٢٣ طـ : دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م .

(٣) قال الفيروزبادى : ووددتُ الشىء أودّ وهو من الأمنية ، قال الفراء : هذا أفضل =

لذلك أرى أن العلة الشعرية فى هذين البيتين ليست من « حسن التعليل » وإنما يمكن أن تكون فيما يلحق به وذلك لعدم توافر الأمور التى يمكن أن تتحقق فيما يمكن أن يطلق عليه « حسن التعليل » .

ثم إنه ربما ذهب البعض إلى أن المذهب الكلامى الذى ذكره الجاحظ وابن المعتز أبعد عن روح الشعر من حسن التعليل ومع ذلك ذكر فى الشعر الجاهلى ، فكيف يحسن التعليل الذى هو من روح الشعر ؟ فهذا ينقض ما سلمت به .

ومع ذلك أقول إن هناك فرقا بين المذهب الكلامى وحسن التعليل ، وذلك أن المذهب الكلامى قائم على سوق الأدلة والعلل ، وحسن التعليل أيضا قائم على إيراد التعليلات الحسنة ، ولكنهما يختلفان فى نوع العلة المساقة ، فالتعليلات فى « المذهب الكلامى » ، تعليلات حقيقية ، قائمة على العقل والمنطق - كما هو معلوم من شواهده الموجودة فى كتب البلاغة - أما التعليلات فى « حسن التعليل » فهى تعليلات خيالية ، قائمة على التصوير والتخييل ، وذلك مخالف للطبيعة العربية التى ما كانت تذهب إلى الغوص فى بحار المعانى العميقة والأخيلة الغريبة الغزيرة التى ينتزعون منها شيئا[1] .

فأنا لا أقطع بعدم وجود هذا اللون البلاغى فى الشعر الجاهلى ، وإنما أرى أنه ربما لم يوجد على الصورة التى هو عليها الآن لدى علماء هذا الفن ، وهو مجىء الصورة فى أسلوب برهانى منطقى ، أو بمعنى آخر : الاحتجاج لفكرة ما عن طريق دليل يؤخذ من مضمون صورة بيانية[2] .

* * *

= الكلام ، وقال بعضهم : ودَدتُ وينقل منه يود لا غير ذكر هذا فى قوله تعالى فى سورة البقرة آية رقم : ٩٦ : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ ﴾ أى يتمنى ...

(١) العصر الجاهلى ص : ٢٢٠ ، ٢٢١ د. شوقى ضيف ، علم البديع دراسة تاريخية وفنية القسم الثانى ص ١١٣ د . بسيونى عبد الفتاح فيود سنة ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٧ م .

(٢) ينظر الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى ص ١٩٣ د. طه مصطفى أبو كريشة .

(ثانيًا) فى القرن الثانى الهجرى

مع كل ما سبق لازال يختلج فى النفس سؤال مقتضاه : يا ترى من يكون أول شاعر تفتقت عبقريته وجادت قريحته بهذا الفن ؟ .

فى الحقيقة أنه كان يعيش فى القرن الثانى الهجرى شاعران كبيران كان لهما عظيم الأثر وجليله فى الاختراع والابتداع ، ودار حولهما الكثير من المناقشات والبحوث اللغوية والأدبية وهما : بشار بن برد المتوفى سنة ١٦٨ هـ ، ومسلم بن الوليد المعروف بصريع الغوانى المتوفى سنة ٢٠٨ هـ ، وقد اختلف العلماء حول أىّ من الشاعرين يكون هو شيخ المبدعين ؟ مع أنهما قد عاشا معظم حياتهما فى ذلك القرن .

ذهب بعض المحدثين إلى أنه يمكننا حتى نعود ونصل إلى نتيجة حاسمة فى الموضوع أن نقوم بمراجعة كتب البلاغة والنقد التى دار فيها الحديث حول هذا اللون البلاغى وحقيقته ، ونختار منها بخاصة كتاب « الإيضاح فى علوم البلاغة » للخطيب القزوينى ، لشهرته وذيوعه بين العلماء ولما يتسم به من ذوق أدبى بين كتب البلاغة لدى المتأخرين من العلماء ، وذلك فى دراسته « لحسن التعليل » فنلحظ أنه قد استشهد لهذا اللون البلاغى بقول مسلم بن الوليد :

يا واشيا حسنت فينا إساءته نجىّ حذارك إنسانى من الغرق

وجعل هذا البيت من أدلة النوع الثالث من أقسام حسن التعليل ، وبذلك الصنيع من الخطيب القزوينى[1] بعد مسلم بن الوليد أول من اخترع هذا اللون وابتدعه فى شعره .

ولكن ! نجد البا حثين المحدثين أيضا يذهب هو الآخر إلى أن أول مخترع لحسن التعليل ومستعمل له فى شعره هو الشاعر : بَشار بن برد ،ويستدل لذلك بما ورد فى عصر المأمون من أنه كان لبشار خمسة أصدقاء مات أربعة وبقى واحد وغرق فى النهر ، فرثاهم بشار بقوله[2] :

---

(١) ينظر : الإيضاح ، بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ .

(٢) ينظر : شرح ديوان بشار بن برد ٤ / ١٩٩ ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، ط الدار التونسية بتونس .

يا ابن موسى فقـــد الحبيب على العيـ ـن قذاة وفى الفؤاد ســـــقام
كيف يصفو لى النعيم وحيـــدا والأخـــلاء فى المقـــابر هام
نفســـــتهم على أمّ المـــنايا فأنامتهـــم بعنـــف فنامـــوا

وإن من يدقق النظر فى البيت الأخير يرى فيه « حسن التعليل » الجميل الذى يفوق ما قاله : مسلم بن الوليد[1] ، ويعد ذلك من وجهة نظر هذا الباحث دلالة على سبق بشار ، ويكون بشار هو أول مستعمل لهذا الفن فى شعره[2] .

وأنا أرى أن هذا منهج سقيم لا يصح استخدامه فى البحث عن الوجود الإبداعى للتراكيب بالحضور الاستشهادى فى كتب البلاغة ، وذلك لأن هناك فرقا بين الوجود الاصطلاحى والوجود الإبداعى للفن ، وإنما يكون ذلك بالبحث فى أسفار الإبداع بمراجعة دواوين الشعراء ، وبخاصة الذين سبقوا بشارًا ومسلما واستقصائها والتفتيش فيها ، ثم بعد ذلك يكون الحكم .

* * *

(ثالثًا) فى كتب البلاغة والنقد

أول من فتق أكمام هذا اللون وعنون له من العلماء هوالعلامة ابن سنان الخفاجى فى كتابه سر الفصاحة[3] ، وذلك حيث يقول : « وأما الاستدلال بالتعليل فكقول أبى الحسن التهامى :

لو لم تكـــن ريقته خمر لما تثنى عطفه وهو صاح

وقوله :

لو لم يكن أقحوانا ثغر مبسمها ما كان يزداد طيبا ساعة السحر[4]

---

(١) وذلك حيث جعل الشاعر العلة الشعرية فى موت أصحابه هو منافسة المنايا فى صحبة هؤلاء الأحباب ، هذا والناس يتخيلون الموت يختار النفائس ويقولون : إنما يعجل بخياركم ، وقد سبق إلى ذلك النبيه فقال : والموت نقـــاد على كفه دراهم يختار منها الجياد ينظر : الديوان السابق .

(٢) ينظر : حسن التعليل ص : ٣٤ .

(٣) ينظر سر الفصاحة ص : ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٤) وذلك أن الشاعر قد ذكر أن العلة فى جعـل ثغرها أقحوانا هو زيادة طيبة وقت السحر .

وقول أبى عباده :

ولو لم تكن ساخطا لم أكن أذم الزمان وأشكو الخطوبا[1]

وقول ابن هانىء الأندلسى :

ولو لم تصافح رجلها الثرى لما كنت أدرى علة للتيمم[2]

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[3] . جار هذا المجرى[4] .

وقد عالج الإمام عبد القاهر الجرجانى هذا اللون فى كتابه أسرار البلاغة ، ولم يعالجه على أنه لون من ألوان البديع ، وإنما على أنه من المعانى التخييلية ، وذلك فى الفصل الذى عنونه بقوله : « فصل فى الأخذ والسرقة وما فى ذلك من التعليل وضروب الحقيقة والتخييل»[5] .

وتحدث الإمام فى هذا الفصل عن التصرف فى المعانى وأنها تنقسم إلى :

معان تحقيقية ، ومعان تخييلية ، وقام بالتفرقة بينهما فأوضح أن المعنى الحقيقى: هو ما يشهد له العقل بالاستقامة وتتضافر التعلاء من كل أمة على تقريره والعمل بموجبه كقول المتنبى :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبـــه الدم

فمعنى هذا البيت مما تلقاه التعلاء بالقبول ووضعوه بمقدمة ما يتنافسون فيه من الحكم البالغة ؛ وكذلك اتخذه الأمراء الراشدون قاعدة يشدون بها ظهر سياستهم ، ويستندون إليها فى حماية شعوبهم ومن الذى يجهل أن حياة الأمم إنما تنتظم بالوقوف فى وجه من يتهافت به السفه على هدم شرفها والاستئثار بحقوقها ؟[6] .

---

(١) علق ابن أبى الإصبع المصرى على هذا البيت فقال: ... وجود سخط الممدوح هو العلة فى شكوى الشاعر الزمان . (تحرير التحبير ص ٣٠٩) .

(٢) علق ابن أبى الإصبع على البيت فقال : « وهذا من غلو ابن هانىء فلحى الله غلوه» تحرير التحبير . (٣) سورة الأنبياء : آية رقم ٢٢ .

(٤) ينظر : سر الفصاحة ص : ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ابن سنان الخفاجى . ط صبيح بمصر .

(٥) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ ، ١٢٩ وما بعدهما .

(٦) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ ، ١٢٩ ، الخيال وأثره فى الشعر العربى ص : ١٠ الشيخ محمد الخضر حسين .

وأن التخييلى : هو الذى يرده العقل ويقضى بعدم انطباقه على الواقع[1] .

وهو قسمان : معلل وغير معلل ، والتعليل عنده أعم من الاستدلال بالتعليل عند ابن سنان الخفاجى ، ومما عرف عند المتأخرين باسم « حسن التعليل » ، والتعليل عند الإمام هو محاولة الإقناع التى يقوم بها المبدع لتحظى صورته بالقبول لدى المخاطب ، لذا يعتمد عنده على التخييل[2] .

والإمام عبد القاهر فى تعرضه « لحسن التعليل » لم يبين حقيقته ولم يحرره على طريقة المتأخرين وإنما على أنه لون من ألوان التخييل وذلك حيث يقول : « وأما القسم التخييلى فهو الذى لا يمكن أن يقال إنه صدق وإن ما أثبته ثابت وما نفاه منفى وهو مفتن المذاهب كثير المسالك لا يكاد يحصر إلا تقريبا ولا يحاط به تقسيما وتبويبا ثم إنه يجىء على طبقات ويأتى على درجات »[3].

ثم يذكر منه ما يطلق عليه عند المتأخرين - من العلماء - اسم« حسن التعليل » فيقول : « فمنه ما يجىء مصنوعا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق حتى أعطى شبها من الحق وغشى رونقا من الصدق باحتجاج يخيل وقياس يصنع فيه ويعمل ، ومثاله قول أبى تمام يمدح الحسن بن رجاء :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة فى قدره ،

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، الخيال وأثره فى الشعر العربى ص٩ .

(٢) ينظر : عبد القاهر الجرجانى ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، أحمد أحمد بدوى ، البديع تأصيل وتجديد : ص ١٨٦ د . منير سلطان .

والتخييل عند عبد القاهر : « هو ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى » (ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٣٦) ، ويقول الشيخ محمد الخضر حسين : الخيال أو التخييل : هو القدرة على سبك المعانى وصوغها فى شكل بديع ، والمفكرة والمخيلة اسمان لقوة واحدة ، وهى التى تتصرف فى المعلومات بالتفصيل والتركيب ، وإنما تغير اسمها بحسب اختلاف الحال فعندما يكون زمامها بيد العقل يسمونها مفكرة ، وعندما تنفلت منه يسمونها مخيلة (ينظر الخيال وأثره فى الشعر العربى ص ١٢ ، ١٣) .

(٣) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ ، ١٢٩ .

وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه وعظم نفعه ، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم ، نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام ، لا تحصيل وإحكام ، فالعلة فى أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية ، أنّ الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب، وتمنعه عن الانسياب ، وليس فى الكريم والمال شىء من هذه الخلال »[1] ، وذكر الشيخ محمد الخضر حسين أن ذلك النوع إنما يأتى بعد تعمق وبعد نظر[2] .

ثم يبين الإمام أنواعه الأخرى فيقول : « ونوع آخر : وهو أن يدعى فى الصفة الثابتة للشىء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور ، فمن الغريب فى ذلك معنى بيت فارسى ترجمته:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما رضى أعنى ما أصله التشبيه ثم أريد التناهى فى المبالغة والإغراق ، ويدخل فى هذا الفن قول المتنبى :

لم يحك نائلك السحاب وإنما حُمَّت به فصبيبها الرحضاء

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث فإنه وضع المعنى وضعا وصورة فى صورة خرج معها إلى ما لا أصل له فى التشبيه فهو كالواقع بين الضربين »[3] ، ويرى الشيخ محمد الخضر حسين أن هذا النوع من التخييل يكون الأمر فيه على البديهة[4] .

والإمام عبد القاهر يشترط عند النظر فى تلاقى المعانى وتناظرها فى التعليل المخيل : التدقيق ومراعاة التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل ، وألا يكون إلى جمل الأمور ، وإلى الإطلاق والعموم ، وذلك حين يتحدث عن « الكلام فى وضع الشاعر للأمر الواجب علة غير معقول كونها علة لذلك الأمر » فيقول : « ومن لطيف هذا الجنس قول الصولى :

الريح تحسدنى عليـ ـك ولم أخلها فى العدا

---

(١) ينظر : السابق .

(٢) ينظر : الخيال وأثره فى الشعر العربى ص : ١٠ .

(٣) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٩ .

(٤) ينظر : الخيال وأثره فى الشعر العربى ص : ١٠ .

لمـا هممت بقبلـــة ردت على الوجه الردا

وذلك أن الريح إذا كان وجهها نحو الوجه فواجب فى طباعها أن ترد الرداء عليه وأن تلف من طرفيه ، وقد ادعى أن ذلك منها لحسدها وغيرة لمحبوبه ، وهى من أجل ما فى نفسها تحول بينه وبين أن ينال من وجهها ، وفى هذه الطريقة قوله :

وحاربنى فيه ريب الزمان كأن الزمان له عاشق

إلا أنه لم يضع علة ومعلولا من طريق النص على شىء بل أثبت محاربة من الزمان فى معنى الحبيب ، ثم جعل دليلا عليها جواز أن يكون شريكا له فى عشقه .

وإذا حققنا لم يجب لأجل أن جعل العشق علة للمحاربة وجمع بين الزمان والريح فى ادعاء العداوة لهما أن يتناسب البيتان من طريق الخصوص والتفصيل ، وذاك أن الكلام فى وضع الشاعر علة لذلك الأمر ، وكون العشق علة للمعاداة فى المحبوب معقول معروف غير بدع ولا منكر ، فإذا بدأ فادعى أن الزمان يعاديه ، ويحاربه فيه فقد أعطاك أن ذلك لمثل هذه العلة ، وليس إذا ردت الريح الرداء فقد وجب أن يكون ذلك لعلة الحسد أو لغيرها لأن رد الرداء شأنها فاعرفه ، فإن من حكم المحصل أن لا ينظر فى تلاقى المعانى وتناظرها إلى جمل الأمور ، وإلى الإطلاق والعموم ، بل ينبغى أن يدقق النظر فى ذلك ، ويراعى التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل .

فأنت فى نحو بيت ابن وهيب .. وحاربنى .. الخ .. تدعى صفة غير ثابتة إذا هى ثبتت اقتضت مثل العلة التى ذكرها ، وفى نحو بيت .. الريح .. تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ثم تدعى له علة من عند نفسك وضعا واختراعا »[1].

فالفنان الأصيل عند الإمام عبد القاهر هو ذلك الذى يتجاوز ما يحضر العين إلى ما يحضر العقل ويجعل إحدى وسائله الفنية العبقرية الخيال التصويرى الذى يعتبره ضرورة من ضرورات العمل الفنى لإيضاح ما لا يستطيع التعبير العادى أن يؤديه ولرسم الصورة الإيحائية لأن قوة الإيحاء وسيلة يستطيع الشاعر بها أن يضيف إضافات جديدة على المعنى المصور بانتقاله من المدلول العادى للألفاظ إلى المعنى حين يجمع بين المتضادات ويصور ما ليس بواقع ولا مشاهد كأنه واقع مشاهد[2] .

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) ينظر : الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجانى منهجا وتطبيقا ٢ / ٦٢١ د . أحمد على دهمان ، سوريا .

ويبين الإمام عبد القاهر أن ذلك اللون قد ينبنى على التشبيهات ويحظى فيها بضرب من السحر لا تأتى الصفة على غرابته ولا يبلغ البيان كنه ما ناله من اللطف والظرف ، فإنه قد بلغ حدا من المعروف فى طباع الغزل ، ويلهى الثكلان وينفث فى عقد الوحشة ، وينشد ما ضل عنك من المسرة ، ويشهد للشعر بما يطيل لسانه فى الفخر ، ويبين جهاة ما للبيان من القدرة والقدر . . . . » ثم يقول بعد ذلك : « ومما هو خليق أن يوضع فى تلك المنزلة ، ويلحق بها فى لطف الصنعة قول أبى هلال العسكرى :

زعم البنفسج أنه كعذاره ... حسنا فسلوا من قفاه لسانه[1]

لم يظلموا فى الحكم إذ مثلوا به ... فلشد ما رفع البنفسج شانه

وقد اتفق للمتأخرين المحدثين فى هذا الفن نكت ولطائف وبدع وظرائف لا يستكثر لها الكثير من الثناء ، ولا يضيق مكانها من الفضل عن سعة الإطراء ، فمن ذلك قول ابن نباتة السعدى فى صفة الفرس :

وأدهم يستمد الليل منه ... وتطلع بين عينيه الثريا

سرى خلف الصباح يطير مشيا ... ويطوى خلفه الأفلاك طيا

فلما خاف وشك الفوت منه ... تشبث بالقوائم والمحيا[2]

وأحسن منه صنعة قوله فى قطعة أخرى :

فكأنما لطم الصباح جبينه ... فاقتص منه وخاض فى أحشائه[3] »[4] .

ثم يعقد الإمام فصلا يقول فيه « وهذا نوع آخر من التعليل » : هو أن يكون للمعنى من المعانى والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع ثم

---

(١) هذا البيت من شواهد القسم الأول لحسن التعليل ، وهو الذى يكون الوصف فيه ثابتا خفى العلة ينظر · بغية الإيضاح - الإيضاح ٤ / ٥٣ .

(٢) هذه الأبيات من شواهد القسم الأول لحسن التعليل أيضا وينظر السابق ٢/٥٣ ، ثم إن الشاعر لو عكس المعنى وجعل الصباح هو الذى يسرى خلف هذا الفرس فخاف أن لا يلحقه فتشبث بقوائمه ومحياه لكان المعنى أحسن ، ينظر : طراز الحلة ص ٥٦٥ .

(٣) هذا البيت من شواهد القسم الأول أيضا ينظر : طراز الحلة ص ٥٦٦ .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٤٧ .

يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة ؛ ويضع له علة أخرى ؛ مثاله قول المتنبى :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب[1]

الذى يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلإرادة إهلاكهم وأن يدفع مضارهم عن نفسه ليسلم له ملكه ويصفوا من منازعاتهم ، وقد ادعى المتنبى ... أن العلة فى قتل الممدوح لأعدائه غير ذلك »[2] .

ويذكر الإمام عبد القاهر هذا اللون ويبين سر البراعة فيه قائلا : « واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون فى استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح أو يكون لها تأثير فى الذم لقصد المتنبى ههنا فى أن يبالغ فى وصفه بالسخاء والجود وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ، ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة فى آمالهم قد بلغت به هذا الجد فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتلى عداه كره أن يخلفها وأن يجنب رجاءها ولا يسعفها .

ومنه نوع آخر من المدح وهو أنه يهزم العدا ويكسرهم كسرا لا يطمعون بعده فى المعاودة فيستغنى بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم وأنه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق ولا يعنو إذا قدر ومايشبه هذه الأوصاف الحميدة فاعرفه»[2] .

ويقول بعد هذا القول : « ومن الغريب فى هذا الجنس على تعمق فيه قول أبى طالب المأمونى - من أدباء القرن الرابع الهجرى - يمدح الوزراء ببخارى :

مغرم بالثناء صبّ بكسب المجـ ـد يهتز للسماح ارتياحا
لا يذوق الإغناء إلا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحا[3]

ويذكر أصل هذين البيتين وأنهما مأخوذان من قول الشاعر قيس بن الملوح :

وإنى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليا

---

(١) هذا البيت من شواهد القسم الثانى لحسن التعليل وهو الذى تظهر له فى العادة علة غير المذكورة ، (ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٤) .

(٢) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٥٨ .

(٣) ينظر : السابق جـ ٢/ ١٥٨ ، ١٥٩ وهما من شواهد القسم الثانى من حسن التعليل ، وينظر كذلك : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٤ .

ويوضح أن هذا الأصل غير بعيد أن يكون أيضا من باب ما استؤنف له علة غير معروفة إلا أنه لا يبلغ فى القوة ذلك المبلغ فى الغرابة والبعد عن العادة ، وذلك أنه قد يتصور أن يريد المغرم إذا بعد عهده بحبيبه أن يراه فى المنام ، وإذا أراد ذلك جاز أن يريد له النوم خاصة ماعرفه[1] ،فالإمام عبد القاهر قد ذكر هذا اللون بأمثلته التى بيّن حقيقتها العلمية وذكر باسم « حسن التعليل » ، وحرر مسائلها من جاء بعده من متأخرى علماء البلاغة[2] .

ثم وصل الأمر إلى العلامة الفخر الرازى الذى يعد أول من أطلق مصطلح « حسن التعليل » على ذلك اللون وعرفه بقوله : « فى حسن التعليل » : وهو أن يذكر وصفان أحدهما لعلة الآخر ويكون الفرض ذكرهما جميعا بقوله :

فإن غادرت الغدران فى صحن وجنتى فلا غرو لم يزل منه وابل يهمى[3]

وتابعه فى ذلك الزنجانى فى كتابه « معيار النظار » وكذلك العلامة ميثم البحرانى فى كتابه « أصول البلاغة » ولم يزيدا شيئا على التعريف بهذا الفن[4] .

وأما ابن أبى الإصبع المصرى فقد عرفه بقوله : التعليل : هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع أو متوقع فيقدم علته قبل ذكره كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾[5] ، فوجود رهطه علة فى سلامته من قومه ... ، ومن الأمثلة الشعرية لذلك قول البحترى :

ولو لم تكن ساخطا لم أكن أذم الزمان وأشكو الخطوبا[6]

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ٦٠ ، وكذلك الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٥ .

(٢) يقول الدكتور أحمد موسى : وهكذا إذا استعرضت أساليب حسن التعليل التى عرض لها عبد القاهر ووطىء عقبه فيها الخطيب ألفيتها من البلاغة فى أكرم محل وأعزّ مكان (ينظر : الصبغ البديعى ص ٤٨٨) .

(٣) وذلك حيث أثبت الغدران فى صحن وجنته بعلة أن الممدوح وابل يهمى ؛ والوابل الهامى : علة كذلك فى الغدران . (ينظر نهاية الإيجاز : ص٢٩٧ ، تحقيق د . بكرى شيخ أمين) .

(٤) ينظر : معيار النظار٢ / ١٥٥ تحقيق د . محمد على رزق ، ط دار المعارف بمصر ، أصول البلاغة ص ٩١ ، ٩٢ تحقيق د . عبد القادر حسين . ط . دار الشروق .

(٥) سورة هود : آية رقم ٩١ .

(٦) ينظر : بديع القرآن ص ١٠٩ ، تحرير التحبير ص ٣٠٩ ابن أبى الإصبع المصرى . تحقيق د . حفنى محمد شرف .

فيذكر أمثلة التعليل وحسن التعليل ولم يفرق بينهما ، مما جعل الدكتور أحمد موسى يقول معلقا على ذلك : وليس هو حسن التعليل الذى أسلفنا الحديث عنه[1] .

ويعرفه بدر الدين بن مالك فى كتابه المصباح بقوله : التعليل أن تقصد إلى حكم فتراه مستبعدا لكونه غريبا أو عجيبا أو لطيفا أو نحو ذلك فتأتى على سبيل التطرف بصفه مناسبة للتعليل فتدعى كونها علة للحكم لتوهم تحقيقه ، فإن إثبات الحكم بذكر علته أروح فى العقل من إثباته بمجرد دعواه » ، ومن أمثلته قول مسلم بن الوليد :

يا واشيا حســـنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الغرق[2]

وبعد بدر الدين أول من استشهد بذلك البيت ، وهو من شواهد القسم الثالث لحسن التعليل عند من جاء بعده من المتأخرين[3] .

ثم يستشهد بدر الدين بأمثلة هى بعينها أمثلة حسن التعليل وإن كان قد سماه بغير اسمه ، ويخلط أيضا فى الأمثلة بين ما يعرف بحسن التعليل وما يلحق به ، دون تقسيم حسن التعليل إلى الأقسام المعروفة عند من جاء بعده من العلماء[4] .

ثم جاء شهاب الدين محمود الحلبى وذكره باسمه المصطلح عليه الآن لدى العلماء وعرفه بقوله : « حسن التعليل : هو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف وهو على ضربين:

- **الأول** : أن الصفة إما ثابتة قصد بيانها أو غير ثابتة أريد إثباتها .
- **فالأولى : أن لا يظهر لها فى العادة علة ، كقوله :**

لم يحك نائلك السحاب وإنما حمّت به فصيبـــها الرحضاء

- **والثانية : تظهر لها علة ، كقوله :**

ما به قتـــل أعاديه ولكـــن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

---

(١) ينظر : الصبغ البديعى ص ٢٨٣ د . أحمد موسى .

(٢) ينظر : المصباح ص ٢٤١ بدر الدين بن مالك ، تحقيق د . حسنى عبد الجليل ط مكتبة الآداب .

(٣) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ .

(٤) ينظر : السابق ٤ / ٥٢ وما بعدها .

فإن قتل الأعداء فى العادة لدفع مضرتهم ، لا لما ذكره .

● **والضرب الثانى : إما ممكنة كقوله :**

يا واشيا حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الغرق

فإن استحسان إساءة الواشى ممكن ، لكن لما خالف فيه عقبه بما ذكر ، أو غير ممكنة ، كقوله :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليهـــا عقد منتطق

والحق به ما بنى على الشك ، كقول أبى تمام :

ربى شفعت ريح الصبا لرياضها إلى المزن حتى جادها وهو هامع
كأن الســـحاب الغرغيين تحتها حبيبا فما ترقأ لهـــن مدامع

وقد أحسن ابن رشيق فى قوله :

سألت الأرض لم جعلت مصلّى ولم كانت لنا طهرا وطيبـــا
فقالت غير ناطـــقة لأنى حويت لكل إنسان حبيبـــا

فشهاب الدين محمود الحلبى بذلك يعد أول من حاول تقسيم حسن التعليل إلى أقسامه المعروفة لدى العلماء الآن ، كما بين ما يلحق بحسن التعليل والسر فى إلحاقه به[1] ، وتابعه فى ذلك حرفا بحرف العلامة النويرى[2] .

ثم جاء الخطيب القزوينى وتعرض فى دراسته لهذا اللون وكان موفقا غاية التوفيق فى تعريفه له ذلك التعريف المختصر الجامع للأقسام فقال : « ومنه - أى من البديع - حسن التعليل : وهو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقى » ثم وضح أقسامه الأربعة ، وذكر ما يلحق بحسن التعليل ، وتقيل فى ذلك الصنيع طريق الإمام عبد القاهر فى ذكره للأمثلة التى ذكرها الإمام مع توضيحها وشرحها[3] .

---

(١) ينظر : حسن التوسل فى صناعة الترسل ص ٥٥ شهاب الدين محمود الحلبى . ط الوهبية ١٣٥٥ هـ بمصر .

(٢) ينظر : نهاية الأرب ٧ / ١١٥ ، ١١٦ شهاب الدين أحمد النويرى ط . وزارة الثقافة والإرشاد القومى بمصر .

(٣) ينظر : أسرار البلاغة ٢/ ١٢٨ وما بعدها، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤/ ٥٢ وما بعدها .

ولم يزد أحد ممن جاء بعد الخطيب شيئا على أقسام حسن التعليل ، وبذلك يكون هذا الفن قد استوى على سوقه ووصل إلى الصورة المثلى التى أهلت العلماء من بعده لأن يستكثروا من ذكر الشواهد والأمثلة الشارحة والموضحة لعناصر الجمال فى هذا اللون البديعى ومدى العبقرية فيه ، وذلك مثل ما فعل العلامة الرعينى ، والعلامة عبد الرحيم العباسى رحمهما الله تعالى[1] ، من القدماء وظل الأمر على ذلك حتى جاء من المحدثين من حاول التجديد فى بحث هذا الفن وإيجاد بعض الشواهد كما فعل الأستاذ : حسن سليم فى بحثه « حسن التعليل »[2] ، وكذلك الدكتور منير سلطان فى كتابه : البديع « تأصيل وتجديد » فبحثه تحت عنوان : «التعليل وطرافة التعليل »[3] .

* * *

(١) ينظر : طراز الحلة ص ٥٦٣ للرعينى ، معاهد التنصيص ٣ / ٥١ : ٥٨ للعباسى .

(٢) ينظر : حسن التعليل فى البلاغة العربية . حسن سليم طنطاوى . مطبعة صادق سلامة بالمنيا .

(٣) ينظر : البديع تأصيل وتجديد ص ١٨٣ . ومنير سلطان ط منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٨٦ م .

المبحث الرابع

حسن التعليل
فى ميزان النقد الأدبى

اهتم النقاد بحسن التعليل فى إطار احتفالهم بالصورة واهتمامهم بها ، وكانت لهم فى ذلك نظرات دلت على مدى ما حظى به هذا الفن لديهم من نظر فى طريقته وتذوق لأمثلته وإبداء الآراء حول بعضها .

وذلك أنهم إذا كانوا يرون أن من أسباب نجاح الخيال قربه من مجال الشعور وأن يكون ممثلا للعاطفة والوجدان مع بعده عن البراهين لاعتماد الشعر على التصوير الحسى وأن الاحتجاج إنما هو من لغة العقل البعيدة عن الإيحاء المثير للعواطف[١] .

فإن حسن التعليل ما هو إلا عبارة عن مجىء الصورة فى أسلوب برهانى منطقى، أو بمعنى آخر : الاحتجاج لفكرة ما عن طريق دليل يؤخذ من مضمون صورة بيانية[٢] .

وقد رأى الإمام عبد القاهر الجرجانى أن سلوك الخيال فى الاحتجاج والتعليل بهذه الطريقة أمر مقبول ما تركت المضايقة ، وأخذ بالمسامحة ، ولم ينقب عن السرائر ، وهو النمط العدل والنمرقة الوسطى ، وهو شىء تراه أشبه كثيرا بالآداب والحكم البريئة من الكذب[٣] .

واشترط النقاد للعلة الشعرية - حُسْنُ التعليل - أن تكون ملائمة للمقام وإلا خرجت عن المقصود منها ، فمثلا فى قول ابن الرومى معللا بكاء الطفل ساعة ولادته :

---

(١) ينظر : الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى ص١٩٣ د . طه مصطفى أبو كريشة .

(٢) ينظر : السابق ص ١٩٧ .

(٣) ينظر . أسرار البلاغة ص ٢٤ ط دار المعرفة بيروت .

لما تؤذن الدنيـــا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولـــد
وإلا فما يبكيه منها وإنهـــــا لأرحب مما كان فيه وأرغـــد

نجده قد علل بكاء الطفل ساعة ولادته بما تؤذن به الدنيا من صروفها والعناء الذى يلقاه فيها وتلك علة خيالية التمسها الشاعر لظاهرة البكاء لحظة ميلاد الطفل ، وهى تعبر عن نفسية الشاعر وتشاؤمه المعهود فى حياته ، إذا ربط بين آلام الحياة وصروف الدهر وبين بكاء الطفل ساعة ولادته ولا شأن للطفل بهذه المتاعب ٠٠ وإنما هى النظرة المتشائمة للحياة ٠٠٠ وعندما نقارن بين هذا القول - من ابن الرومى - وبين قول أحد شعراء الأندلس معللا بكاء الطفل عند مولده تعليلا آخر ، فيقول مهنئا بمولده:

لم يستهل بكا ولكن تنكرا أن لم تعد له الدروع لفائفا

نجد أن الشاعر - هنا - قد علل بكاء الطفل بأنه ينكر لفائفه المعتادة ويريدها دروعا وسيوفا وكأن الشاعر يتنبأ بما سيكون عليه الطفل من الشجاعة والقوة ، وهذا يناسب مقام التهنئة بالمولود ٠

ومثل ذلك النظر فى تعليل شاعرين وهما يعللان للكلف الموجود على صفحة البدر ، يقول أبو العلاء المعرى فى رثاء إبراهيم العلوى معللا كلف البدر :

وما كلفة البدر المنير قديمة ولكنها فى وجهه أثر اللطم

ويقول ابن القيسرانى معللا كلفة البدر أيضا :

وأهوى الذى أهوى له البدر ساجدا ألست ترى فى وجهه أثر الترب

فنجد اختلافا فى التعليلين عند الشاعرين ، الأول : يعلله بأثر اللطم ، والثانى: بسجود البدر لمن أحبه وهواه ، وكل واحد من التعبيرين مناسب للمقام الذى قيل فيه ، إذ الأول : فى مقام الرثاء ، والثانى : فى مقام الحب والغزل[1] .

كما اشترطوا ألا يكون مجافيا للذوق والآداب والقيم ، وإلاخرج إلى سوء تعليل وفساد ذوق واستدلوا لذلك بقول ابن هانىء الأندلسى :

ولو لم تصافح رجلها صفحة الثرى لمـــا كنـــت أدرى علة للتيمم

وذلك حيث علل الشاعر للتيمم بما يتنافى وقيم الإسلام وآدابه الرفيعة ، إذ

---

(١) ينظر : علم البديع دراسة تاريخية فنية ص ١١٨ د ٠ بسيونى عبد الفتاح فيود ط أولى سنة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م ٠

جعل العلة فيه هو مصافحة رجل فتاته للثرى الذى يكون به التيمم ، وقد علق ابن أبى الإصبع المصرى على ذلك فقال : وهذا من غلو ابن هانىء المعروف فلحى الله غلوه .. أراد ابن هانىء الإغراب فى هذا المعنى فوقع فيما عادته أن يقع فيه من الغلو ، وأحسن منه قول ابن رشيق القيروانى فى تعليل قوله عليه الصلاة والسلام : « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورًا » وحيث قال :

سألت الأرض لم جعلت مصلى ... ولِمْ كانت لنا طهرا وطيبا
فقالت غير ناطقة لأنى ... حويت لكل إنسان حبيبا

فتخلص مما وقع فيه ابن هانىء لكونه ذكر أنه سأل الأرض عن العلة التى بسببها جعلها الله تعالى لرسوله - عليه السلام - مسجدا وطهورا وتلطف فى استخراج علة مناسبة لاحرج عليه فى ذكرها فكيف وقد ذكرها على لسانها فى جواب سؤاله[1] .

واشترط الإمام عبد القاهر للعلة الشعرية الطبع وعدم الإفراط والتعمق ، وذلك أن الإمام وإن كان يرى أن التخييل عموما يحتاج إلى مزيد من التعمق والتفكر فإنه يرى أنه ينبغى على الشاعر أن يحذر الإفراط فى هذا الجانب وذلك لأنه ربما أخل بالمعنى وألحق بقوله الشين ، وأكد على ذلك فى عرضه لأمثلة هذا اللون أو بالأحرى تلك الصورة من صور التخييل ، فيقول : « ومن الغريب فى هذا الجنس على تعمق فيه قول أبى طالب المأمونى » :

مغرم بالثناء صب بكسب المجـ ... ـد يهتز للسماح ارتياحا
لا يذوق الإغفاء إلا رجاء ... أن يرى طيف مستميح رواحا

وكأنه شرط الرواح على معنى : أن العفاة والراجين إنما يحضرونه فى صدر النهار على عادة السلاطين فإذا كان الرواح ونحوه من الأوقات التى ليست من أوقات الإذن قلّوا فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم ، والإفراط فى التعمق ربما أخل بالمعنى من حيث يراد تأكيده به ، ألا ترى أن هذا الكلام قد يوهم أنه يحتج له : إنه ممن لا يرغب كل واحد فى أخذ عطائه ، وأنه ليس فى طبقة من قيل فيه :

عطاؤك زين لامرىء إن أصبته ... بخير وما كل العطاء يزين

---

(١) ينظر : تحرير التحبير ص ٣١٠ ابن أبى الإصبع المصرى ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

وذلك فى بيته الثانى حيث يعلل إغفاء الممدوح برجاء أن يرى طيف طالب عطاءه وقت الرواح والعلة الحقيقية فى ذلك إنما هى طلب الراحة .

فالإمام يرى أن الشاعر قد أفرط فى التعمق حتى أتى بهذه العلة لتأكيد مراده ، ولكن كلام الشاعر مع ذلك يوهم من ناحية أخرى معنى غير مقصود ، والذى جره إلى ذلك إنما هو إفراطه فى التعمق[1] .

ثم يحاول الإمام بعد ذلك دفع هذا التوهم والتقليل من أهميته فيقول : ومما يدفع عنه الاعتراض ويوجب قلة الاحتفال به (أى الاعتراض) أن الشاعر يهمه أبدا إثبات أن ممدوحه جواد أو تواق إلى السؤال فرحا بهم ، وأن يبرئه من عبوس البخل وقطوب المتكلف فى البذل الذى يقاتل نفسه عن ماله حتى يقال جواد ، وممن يهوى الثراء والثناء معاد لا يتمكن فى نفسه معنى قول أبى تمام :

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد فى كف امرىء والدراهم

فهو يسرع إلى استماع المدائح ، ولا يبطىء عن صلة المادح ، نعم فإذا سلم للشاعر هذا الغرض لم يفكر فى خطرات الظنون .

وعلى الرغم من محاولته تلك فى دفع هذا الاعتراض ، إلا أنه لا يغير شيئا من أصل ما نبه عليه فيما سبق وهو أن الإفراط فى الصفة يخل بالمعنى ومن هذه الجهة يلحق الضيم كثيرا من المتعمقين وممن ليسوا من المطبوعين[2] .

كذلك رأى النقاد أنه يجب أن لا يصيب العلة المتوهمة شىء من المبالغة ، وإلا ما حظيت بالقبول الذى تحظى به الصور التى تأتى على شىء من القصد والاعتدال .

فمثلا عندما تنظر فيما وقع من المتنبى حين بالغ فى التصوير فى قوله مادحا بالجود ومقارنا بين جود الممدوح وغيث السحاب وأن جود الممدوح لا يبارى[3] :

وإذا مطرت فلا لأنك مجدب يسقى الخصيب وتمطـــر الدأماء

لم يحك نائلك الســـحاب وإنما حُمَّت به فصيبها الرحضـــاء

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ . ط دار المعرفة بيروت .

(٢) ينظر السابق ، وينظر : بحوث فى البلاغة والنقد ص ١٠٨ ، ١٠٩ د . الشحات محمد أبو ستيت ، ط الأمانة سنة ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م القاهرة .

(٣) الدأماء : البحر ، ينظر : ديوان المتنبى ص ١٢٩ نشر المكتبة الثقافية بيروت .

نجد أن الشاعر أراد أن يجعل الممدوح مثلا فى الجود فقلب التشبيه وجعله أصلا والسحاب فرعًا ثم بالغ فتخيل أن مطر السحاب ليس محاكاة له ، لأنه عاجز عن هذه المحاكاة ، وإنما حدثت به غيرة كان من ورائها إصابته بالحمى فكان مطره عرق هذه الحمى .

وعد القاضى عبد العزيز الجرجانى مثل هذا التخييل مما لا يؤدى إلى الظفر بمعنى شريف ، وإنما هو الإفراط والإغراق والإحالة[1] .

وشبيه بالسحاب الذى أصابته الحمى هنا ، الصرع الذى أصاب خيمة سيف الدولة فأدى إلى تقويضها وهدمها ، يقول المتنبى[2] :

وكيف تقوم على راحـــة ... كأن البحار لها أنمـــل
فليت وقارك فرقتـــــه ... وحملت أرضك ما تحمـــل
رأت لون نورك فى لونهـــا ... كلون الغزالة لا يغســـل
وأن لها شرفا باذخـــا ... وأن الخيام بها تخجـــل
فلا تنكرن لها صرعـــة ... فمن فرح النفس ما يقتـــل
ولو بلغ الناس ما بُلّغتْ ... لخانتهم حولك الأرجـــل

فهو يعلل لهذا التقويض الذى أصاب الخيمة ، ومع أن الخيمة وقعت بسبب ريح شديدة إلا أن الشاعر المتنبى بحث لهذا التعويض عن علل خيالية اتخذها وسيلة إلى مدح سيف الدولة فذكر أنها تقوضت لأنها أحست بالعجز عن أن تحويه فهو جواد كأن البحار جميعا أنامل لراحته المعطاء ، ثم ذكر علة أخرى غير العجز وهى شدة فرحها بحلول سيف الدولة ، ولكن : « من فرح النفس ما يقتل » ، وثمة علة ثالثة وهى أن الخيمة لقربها الشديد منه أصابها كثير من الهيبة فارتعشت وخانتها أطنابها ولو كان الناس فى مثل مكانها « لخانتهم الأرجل » فمثل هذه التعليلات لا وجود لها إلا فى ذهن صاحبها ، وهو قد اتخذها طريقا إلى مدح سيف الدولة بالجود والوقار والشرف والهيبة[3] ، فهى وإن كانت مقبولة إلا أن فيها تلك المبالغات ، التى كان المدح سبب وقوع الشعراء فيها والتى جعلها - أيضا - محل نظر من النقاد .

(١) ينظر : الوساطة ص ١٨٠ القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى .
(٢) ينظر : ديوان المتنبى ص : ٣٠٦ نشر المكتبة الثقافية بيروت .
(٣) ينظر : الخيال الشعرى عند المتنبى ص٢٠٠ ، ٢٠١ د . طه مصطفى أبو كريشة .

ولقد كان لابن وكيع التنيسى موقف كذلك ، مع « حُسْنُ التعليل » ، إذ وقف موقفا عقليا بحتا من هذا اللون ، وذلك أثناء تأمله لشعر المتنبى ، حيث عاب بعض الأبيات التى حليت بهذا اللون الخيالى فى كنايه (المنصف) ، ومنها قول المتنبى :

ما به قتـــل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

فيقول مُتعجبا : هذا من طريق المدح « أن تمدح الرجل بقتل بنى آدم لئلا يخلف رجاء الذئاب ، وأنه كان لا يقتل أعاديه خوفا منهم ولكن يقتلهم من أجل تحقيق رجاء لذئاب ، والذئاب تريد أن تشبع ولا يشترط الشبع من لحوم الناس ، فإذا كان هَمّه فالأحسن أن يشبعها من لحم حلال ليحقق رجاءها ويصير من أهل العفو ويجتنب المآثم والكف عن الاستكثار بالمظالم[1] .

فابن وكيع نظر فى البيت بمعيار العقل ولذلك عاب على المتنبى خياله الذى صور علة غير حقيقية لإقدام الممدوح على قتل أعدائه .

ثم عاد ابن وكيع وكرر فى موضع آخر من كتابه (المنصف) هذا البيت للمتنبى وكرر ما ذكره من أن دماء بنى آدم لا يحسن سفكها من أجل الذئاب والطير ، ففى قول المتنبى :

سفك الدماء بجوده لا بأسه كرما لأن الطير بعض عياله

يقول ابن وكيع : فأخبر أن سفكه للدماء إنما كان للجود لا للبأس ، فنفى من فضيلة الأمراء ما هو أحوج إليه وأخص بصفاته ، ولو كان قائد جيش بخيلا كان أقل عيبا من أن يكون جبانا ، وقد استحسن هذا المعنى حتى كرره فقال :

ما به قتـــل أعاديه ولكـــن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

فخبر أنه سفك دماء الناس خوفا من إخلاف الذئاب رجاءها ، وكذلك سفكها لأن الطير من عياله ، وما يحسن أن تسفك دماء بنى آدم بغير استحقاق لتشبع لحومهم الذئب والطير قد يسفك لهـا لمقصد دم ما هو أحسن سفك دم من دماء الآدميين وأجل ، فإن قال قائل قد قال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهـــم عصائب طير تهتدى بعصـــــائب

جوانح قد أيقن أن قبيـــــــله إذا ما التقى الجيشـــان أول غالب

---

(١) ينظر : المنصف ص ٥٣ ابن وكيع التنيسى .

قال الأفوه ، ومنه أخذ النابغة :

وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستمار

وقال أبو نواس :

تتأبى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وقال مسلم :

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبـــعنه فى كل مرتحل

فقد سبقه الناس إلى ما عيب عليه .

قلنا : ليس الأمر كما ظننت ، لأن هؤلاء كلهم إنما قصدوا أن الممدوحين مظفرون ويسفكون الدماء فى كل حرب ، وقد تعود الطير ذلك منهم ، فهى تتبعهم واثقة بالعادة منهم ، ولم يخبر أحد من الشعراء أن دماء الناس يقصد بسفكها إشباع الطير ، إنما تسفك بمقصد عقلى فإذا سفكت انتفعت الطير بها فهذا الفرق بين المذهبين[1] .

فنجد أن ابن وكيع عنده قدرة فائقة على استخراج المعانى المكررة وتتبعها لدى الشعراء على مر عصور الشعر ، وإن كان المعيب عليه هو تناقضه فى أحكامه ففى الوقت الذى ينقضى فيه كلام المتنبى ويرفض خياله ، يقبل خيال غيره من الشعراء ، على الرغم من عدم وجود فارق يعتد به بين ما قبله من شعر الشعراء وما رفضه من شعر المتنبى ، والمفروض فى الناقد عند تعامله مع ذلك اللون البديعى أن لا يضع القيود العقلية ليحاسب بها الشعراء على تخيلاتهم ، ما دام كلامهم قد طابق المقاييس البلاغية التى ارتضاها أهل هذا العلم[2] .

ويمضى بنا الزمن حتى نصل إلى العصر الحديث فنجد أن هذا اللون قد حظى باهتمـــام باحث وناقد معاصر بحثه فى درسه لقضية « الإبداع والاختراع » عند الشعراء ، وذلك حيث يقرر أن من مظاهر العقم فى الأدب العربى تلك الفكرة

---

(١) ينظر المنصف ص ٥٥٤ ، ٥٥٥ . ابن وكيع التنيسى . تحقيق د . محمد رضوان الداية ، ط سوريا .

(٢) ينظر السابق ص ٥٣٠ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، وينظر : المعركة النقدية بين ابن وكيع والمتنبى ص ٣١٢ ، ٣١٣ د . الشحات محمد أبو ستيت ط الأمانة ١٩٩١ م . القاهرة .

الخاصة التى سيطرت على الشعراء المتأخرين وهى : سمى (بالاختراع والابتكار) وذلك أن الشاعر لا يطلب منه أن يجيء بالمعنى الجديد الذى لم يسبق إليه ، وليس من علامات التفوق أن يخترع ويبتكر المعانى والصور إلا عنـــد من أخطأ فهم مهمة الشاعر ، وإنما يطلب من الشاعر ما يعرف بالأصالة ، وهى لا تتم إلا إذا توفر لها عنصران :

● أولهما : عمق الإحساس .

● ثانيهما : استقلاله وتميزه فى التعبير عن هذا العمق ، وفى الحق أن الأمرين وجهان لشيء واحد[1] ، ويرى ذلك الناقد أن المسألة على ذلك ليست ابتكارا واختراعا ، وإنما هى أسلوب فى التعبير يختلف بين عصر وعصر ومذهب ومذهب ، بين فنان وفنان واختلاف المذاهب والأساليب ينبغى أن يكون وراء شعور صادق من الفنان بأن أسلوب غيره أو أسلوب السابقين عليه لا يفى بحاجة التعبير الحى الموحى التى ينشدها والتى يجدها مطابقة لحالاته النفسية ومشاعره[2] .

وينتهى من ذلك إلى أن تلك الفكرة هى التى سيطرت على الشعراء المتأخرين فى العصر الأيوبى مما كان له أكبر الأثر فى فهم الشعر من جانب ، بل كانت دليلا على سطحية الإحساس لدى هؤلاء الشعراء من جانب آخر ، وتلاعبا والتماسا للغرابة والتفرد من جانب ثالث ، وغلبة للعقل على العاطفة من جانب رابع[3] ، ويستدل لذلك بعدة أبيات لابن سناء الملك ، يرى أنه بها كان يسعى وراء ما سماه « اختراعا وابتكارا » .

من ذلك شاهد لحسن التعليل يقول فيه : أما البيت الذى فيه الخضاب وقد فهم منه أن تلك المرأة المذكورة قد خضبت كفها بخضاب أخضر اللون ، فهو يدخل فيما أسماه البلاغيون بحسن التعليل ، وهو فى اصطلاحهم : أن تفسر ظاهرة من الظواهر المحسوسة أو المدركة بسبب غير سببها الطبيعى المعروف فيلتمس لها علة أخرى بلاغية أو أدبية تقوم مقام العلة الحقيقية فقول الشاعر :

فلا تنكروا منهـــا الخضاب فإنما هى الغصن فى أطرافه الورق الخضر

معناه أنه ما دامت قامة المرأة تشبه الغصن فلا عجب أن يكون فى أطراف هذا الغصن ورق أخضر وهو هنا الكفان المخضوبان بالخضرة . . .

(١) ينظر : ابن سناء الملك « مشكلة العقم والابتكار » ص ٧٧ . ط الانجلو .

(٢) السابق ص ٧٨ . (٣) السابق ص ٧٩ .

وقد شغف ابن سناء الملك بهذا الاتجاه شغفا عظيما بحيث لا تكاد تخلو قصيدة له من عدد من « حسن التعليل »[1] .

ويرى هذا الناقد أن « حسن التعليل » بهذا المعنى البلاغى . . . كان ينبغى أن يسمى المغالطة ، أو على الأقل التعليل البلاغى بدلا من « حسن التعليل » لأنه فى أكثر الحالات لا يستحق أن يوصف بالحسن[2] .

لكن هذا القول يرد عليه ، وذلك لأن المغالطة لون آخر من ألوان البلاغة يختلف عن حسن التعليل ، وكذلك يوجد أيضا لدى العلماء ما يعرف « بالتعليل » وهو يختلف كذلك عن حسن التعليل ، ثم إن قوله « التعليل اليلاغى » يرد عليه قوله ، لأنه لا يمكن أن يكون الكلام بليغا إلا إذا كان مقبولا ، ولا يكون مقبولا إلا إذا كان مستحسنا ممن يتذوقون الأساليب ويميزون البليغ من غير البليغ ، ولأن طريقة حسن التعليل تختلف عن طريقة التعليل ، وذلك لأن طريقة حسن التعليل لا تنطبق على القرآن الكريم ، وتنطبق على الشعر والنثر الأدبى ، وأما ما جاء فى القرآن فيطلق عليه « التعليل » فهناك فرق لاعتماد « حسن التعليل » على الخيال فى العلة بخلاف التعليل فلا خيال فيه .

ثم يعود هذا الناقد مرة أخرى منكرا « حسن التعليل » تحت عنوان « الاستعارة والتعليل البلاغى » ، ويورد البيت السابق لابن سناء الملك وهو قوله :

فلا تنكروا منهـــا الخضاب فإنمـــا هو الغصن فى أطرافه الورق الخضر

ويقول فيه : ومن هنا كانت الاستعارة أقرب إلى الفهم الحقيقى للشعر ، وأبعد عن التكلف لأنها كما قلنا تعتمد على اللمحة الدالة الموحية وهى أيسر على الشاعر والقارىء لأنها عنصر من عناصر متعددة يشترك معها فى إثارة العاطفة ويدخل فى نطاقها ، أما « حسن التعليل » فإنه لما خرج فى صورة قضية منطقية كان أقرب إلى حكم العقل وأشبه بأن يثير التفكير العقلى لدى القارىء قبل الإيحاء العاطفى ، وهذا نوع من الانحراف فى معنى الشعر ، وكان لابد لكى يدخل « حسن التعليل » فى المفهوم الحقيقى للشعر أن يخفف ما استطاع من صرامة العرض المنطقى ووضوحه ، وأن تكون قضية معروضة فى جو عاطفى بحيث لا يحس قارىء الشعر فيه بتكلف وافتعال وحرص على مناقضة العقل وتكذيب الواقع ، إذ إن مهمة الشاعر وفنه

---

(١) السابق ص ٨٥ .

(٢) السابق ص ٨٦ .

الحقيقى وبلوغه ما ينشده من تأثير فى نفس القارىء سيظل مرتكزا على (الإقناع) بمعنى من المعانى ، وإن عمل الشاعر فى الشعر الغنائى والقصصى والتمثيلى لا يمكن بحال من الأحوال أن يخلو من محاولة هذا الإقناع ، لأنه عن طريقه يدخل القارىء والسامع فى الجو الذى يريده ، ويجعله يشاركه فيما يسعى للتعبير عنه ، فإذا أخفق الشاعر فى تحقيق هذه المشاركة الوجدانية بينه وبين جمهوره ، ولم يستطع أن يقنعهم بتجربته وأن يجعل هذه التجربة تبدو معقولة أو كالمعقولة لديهم ، سقط شعره وأصبح مثيرا للضحك أو السخرية فيفقد بذلك الشاعر ما ينشده من ثقة جمهوره به وتصديقهم له واحترامهم لانفعاله .

و« حُسْنُ التعليل » أكثر من سائر أنواع الفنون البلاغية يضع الشاعر وجها لوجه أمام هذه الحقيقة سافرة واضحة ، لذلك كان نجاحه فى الإقناع بعيد الاحتمال ، إذ إنه بسط المسالة منذ البدء فى معرض منطقى جدلى ، أو أسلوب المغالطة والسفسطة حسبما يستخدمه المتفلسفون[1] .

وينكر الدكتور « حسن التعليل » أو ما سماه بالتعليل البلاغى ، ويعزوه إلى ما يعرف عند العلماء « بالإلغاز » وأن الشاعر ابن سناء الملك جعله فى مواضع كثيرة من شعره رياضة عقلية ومحاولة لإثارة ألغاز تحير عقول المستمعين ثم يفجؤهم بالحل ومثل لكلامه هذا بقول لابن سناء متحدثا عن الخمر والمتغزل فيه وهو الساقى :

أخذ الرّاح حراما وتحساها حلالا

فهذا لغز ينتظر المستمع له حلا من الشاعر ، ولا يطول الانتظار فالحل فى البيت الثانى :

طبختها نار خدّيه بنور يتلالا[2]

وأرجع الدكتور السبب فى اللجوء إلى ذلك إلى الحيل الفقهية التى كانت شائعة فى ذلك العصر ، وعكوف الفقهاء على إقامة الفروض المستحيلة الوقوع لمجرد الرياضة العقلية[3] ، ثم يقول : وليس من شك فى أن هذا النزوع كان له أثره فى شعر الشعراء[3] .

وهناك فرق كبير بين الإلغاز ، وحسن التعليل وذلك أن كلّ واحد منهما فن بلاغى مستقل يختلف عن الآخر ، وهذا خلط فى المسائل البلاغية .

---

(١) ينظر السابق : ٩٣ .

(٢) ينظر السابق ص ٩٦ .

(٣) السابق ص ٩٧ .

ويرى الدكتور أيضا : أن « حُسْنُ التعليل » إنما يستخدم فى بعض الأحيان لوظيفة نفعية أو عملية فى المجتمع سجلها له القدماء ، واعتبروه فيها منقذا من ورطة ومخلصا من كارثة .

فالناقد بدل أن يعتبر « حسن التعليل » دلالة قوية على سعة الخيال ، وشدة تمكن الشاعر أو الناثر فى اللغة ، ومقدرته على سرعة التصرف فى المواقف الحرجة ينعى عليه كل هذا وينكر ذلك اللون البلاغى ويعتبره نوعا من الإلغاز والحيل الفقهية والوظيفة النفعية .

ومعلوم أن هذا اللون من ألوان البلاغة إنما هو وسيلة من وسائل التصرف فى اللغة وقوة الخيال والقدرة العجيبة على الربط بين المتباينين وتقريب المتباعدين بوسيلة من وسائل الإقناع الذى يقرب الخيال من الحقيقة ، ويجعله كأنه حقيقة واقعة ماثلة أمام العين .

وفى نعيه على البلاغيين ودراستهم هذا اللون وخاصة الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه أسرار البلاغة ، نرى أن ذلك إنما كان منه لأنه لم يمعن النظر فى كلام الإمام ولم ير أنه قد اشترط لهذا اللون الطبع والبعد عن التعمق والملاءمة للمقام حتى لا يحدث هناك اختلال يخرج به إلى ما لا يرتضيه علماء البلاغة ، ولو رجع إلى كلام الإمام لوجده أوضح من الشمس فى رائعة النهار فى ذلك المجال .

* * *

المبحث الخامس

القرآن الكريم .. وحُسْنُ التعليل

إن المتصفح لكتب التراث التى لها قدم راسخة فى فن البديع ودراسته ، ليرى أنها لم تذكر فى « حسن التعليل » أمثلة وشواهد من القرآن الكريم[1] ، سوى البعض منها كما فى كتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى عند ذكره : « الاستدلال بالتعليل »[2] واستشهاده بقول الله عز وجل « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا »[3] ، ولكن الشيخ عبد المتعال الصعيدى محقق الكتاب رحمه الله تعالى رد على ابن سنان فى هذه الآية وأبان أنهـا ليست من « حسن التعليل » ، وإنمـا هى شاهد لفن آخر وهو « المذهب الكلامى » ، وأيده فى ذلك الرأى المرحوم الدكتور / أحمد موسى فى رد قول ابن سنان بقوله : « فتراه يخلط بين ما عرف باسم « حسن التعليل » ، وما عرف باسم « المذهب الكلامى »[4] .

ولكن الدكتور / حفنى شرف يرد هذا الكلام ويرى الآية من قبيل « حسن التعليل » قائلا : « وهذا القول أخذه المرحوم - أى الشيخ عبد المتعال الصعيدى - من بعض البلاغيين الذين استشهدوا للمذهب الكلامى بهذه الآية ، وأنا أرى أنها تصلح شاهدا للتعليل إذ إن عدم فساد الكون يترتب على عدم تعدد الآلهة ، وتعدد الآلهة علة للفساد فنفى التعدد نفى للفساد »[5] .

ومع كل ذلك فإنى أرى أن كلام الدكتور الفاضل قريب الصلة بالمذهب

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ وما بعدها ، نهاية الإيجاز ص ٢٩٧ ، المصباح ص٢٤١، حسن التوسل ص٥٥ ، نهاية الأرب ٧ / ١١٥، الإيضاح - بغية الإيضاح٤ / ٥٥ ، طراز الحلة ص ٥٦٣ ، معاهد التنصيص ٣ / ٥١ ، شروح التلخيص ٤ / ٣٧٣ ، المطول ص٤٣٦ ، الأطول ٢ / ٢١٠ .

(٢) ينظر : سر الفصاحة ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٣) سورة الأنبياء : آية رقم ٢٢ .

(٤) ينظر الصبغ البديعى ص : ٢١٧ .

(٥) ينظر : التصوير البيانى ص ٤٩٥ د . حفنى شرف .

الكلامى الذى هو طريقة أهل الاحتجاج بالبرهان ، وبعيد كل البعد عن « حسن التعليل » الذى قصده ، وذلك لأسباب :

(أولا) تعريف حسن التعليل وشرائطه لا تنطبق عليه .

(ثانيا) بالرجوع إلى أمهات كتب التفسير فى بيان معنى هذه الآية ، يقول الإمام ابن كثير : « لفسدتا » كقوله تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1] أى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فمـا كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض فى غاية الكمال . . . . والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع ، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا فأراد كل واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزا ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالا ، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكنا لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2] فهذا يدل على أن الآية من قبيل المذهب الكلامى كما ذهب إليه العلماء[3] .

(ثالثا) حسن التعليل مبنى على التخيل الذى فيه إيهام بالكذب فى اختراع العلة وتصوير ما ليس بواقع متخيلا كأنه واقع ، وهذا لا يليق بأسلوب القرآن الكريم المقرر للحقائق والصدق والتى نزه العلماء ساحة القرآن عن أن يقع فيها مثل ذلك ، وهذا غير موجود ومنطبق على أسلوب الآية الكريمة مما يؤكد كونها ليست من حسن التعليل .

وكذلك ما ورد فى كتابى العلامة ابن أبى الإصبع المصرى من الاستشهاد بقوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[4] ، فإننا نجد

---

(١) سورة المؤمنون : آية رقم ٩١ .

(٢) ينظر: فى ذلك تفسير ابن كثير ٣ / ١٧٥ ، ٢٥٤ ، نظم الدرر ١٢ / ٤٠٣ للبقاعى، ينظر : الفتوحات الإلهية ٣ / ٣٣٦ العلامة الجمل .

(٣) ينظر : الإيضاح . بغية الإيضاح ٤ / ٥٠ .

(٤) سورة القصص: آية رقم٨ ،ينظر: بديع القرآن ص ١٠٩ ، تحرير التحبير ص٣٠٩.

الإمام ابن كثير يقول فى تفسيرها : اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى ما قالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل ، لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحزنا فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه »[1] .

ويقول العلامة الجمل أيضا : أى فاللام لام العاقبة أبرز من مدخولها فى معرض العلة لالتقاطهم تشبيها له الترتب عليه بالغرض الحامل عليه[2] .

وعلى ذلك فإن العلة ليست مخترعة كما هو الحال فى حسن التعليل ، وبذلك لم تكن هذه الآية وما استشهد به ابن أبى الإصبع من آيات القرآن من « حسن التعليل » فى شىء وإنما هى من التعليل ، وذلك لأن التعليل فى القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ تعليل جاد لا هزل فيه ، والقرآن الكريم أسهم فى التعليل ولكنه يعلل بطريقة بليغة معجزة فيها المنطق وفيها فنية التعبير وفيها التشريع وفيها الجدية ، فالقرآن شارك الشعراء فى التعليل ، ولم يشاركهم فى حسن التعليل ، وما ذلك إلا لأن المبدع يلجأ فى حسن التعليل إلى الطرافة واختراع العلة وهو فى ذلك معرض للوقوع فى السخف والردىء من أنواع التعليل[3] ، وذلك لا يمكن أن يكون فى تعليل القرآن الكريم .

وقد عقد الإمام الزركشى قسما خاصا « للتعليل » فى كتابه « البرهان » وبدأه بقوله : أن يذكر الشىء معللا فإنه أبلغ من ذكره بلا علة لوجهين :

أحدهما : أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول .

الثانى : أن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة بخلاف غيرها ، وغالب التعليل فى القرآن على تقدير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى وهو سؤال عن العلة ومنه ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[4] ، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[5] ، ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾[6] ، وتوضيح التعليل أن الفاء السببية لو وضعت مكان إنَّ لحسن[7] .

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ٣ / ٣٨٠ ، ٣٨١ .

(٢) ينظر : الفتوحات الإلهية ٣ / ٣٣٦ .

(٣) ينظر : البديع : تأصيل وتجديد ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٤) سورة يوسف : آية رقم ٥٣ .

(٥) سورة الحج : آية رقم (١) .

(٦) سورة التوبة : آية رقم ١٠٣ .

(٧) ينظر : البرهان فى علوم القرآن ٣/ ٩١ .

ثم ذكر أنواع الطرق الدالة على العلة ، وأتى بأمثلة لها ، منها : قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾[1] . ثم قال: فإن قيل : اللام فيه للعاقبة كقوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[2] ، وقوله : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾[3] وإنما قلنا ذلك لأن أفعال الله لا تعلل ، فالجواب : أن معنى قولنا إن أفعال الله لا تعلل أى لا تجب ، لكنها لا تخلو عن الحكمة وقد أجاب الملائكة عن قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾[4] بقوله : ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[4] ولو كان فعله تعالى مجردا عن الغايات لم يسأل الملائكة عن حكمته ولم يصح الجواب بكونه يعلم مالا يعلمون من الحكمة والمصالح ، وفرق بين العلم والحكمة ، ولأن لام العاقبة إنما تكون فى حق من يجهل العاقبة كقوله : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[5] ، وأما من هو بكل شىء عليم فمستحيلة فى حقه ، وإنما اللام الواردة فى أحكامه وأفعاله لام الحكمة والغاية المطلوبة من الحكمة ثم قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ هو تعليل لقضاء الله بالتقاطه وتقديره لهم ، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره وذكر فعلهم دون قضائه ، لأنه أبلغ فى كونه حزنا لهم[6] .

وبذلك يتضح لنا أن اللائق بكتاب الله تعالى هو التعليل ، وذلك لأنه كتاب الله الذى أحكمت آياته وصينت عن الكذب والتحليق فى آفاق الخيال ، شأن الكتب الدينية التى تتحدث عن الواقع وتربط المعلولات بعلتها الحقيقية ، وليس من شأنها تكلف النظر بخلق الخيال وإيهام الكذب وتحسينه[7] .

---

(١) آل عمران : آية رقم ١٢٦ .
(٢) القصص : آية رقم ٨ .
(٣) الحج : آية رقم ٥٣ .
(٤) البقرة : آية رقم (٣٠) .
(٥) القصص : آية رقم (٨) .
(٦) ينظر : البرهان ٣ / ٩٢ ، ٩٣ ، ورأى علماء البلاغة أن هذه الآية من قبيل الاستعارة التبعية فى الحرف يقول الخطيب القزوينى : وفى الحروف لمتعلقات معانيها . . . فيقدر التشبيه فى لام التعليل فى قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ للعداوة والحزن الحاصلين بعد الالتقاط بالعلة الغائية للالتقاط ، ويعلق الشيخ عبد المتعال الصعيدى عليه فيقول : وأما على طريقة الجمهور فيقال: شبه ترتب العداوة والحزن على الالتقاط بترتيب علته الغائية كالمحبة والتبنى عليه ، ثم استعير للمشبه اللفظ الموضوع للمشبه به وهو لام التعليل ، ينظر الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ١٢١ ، ١٢٢ .
(٧) ينظر : حُسْنُ التعليل ص ١٨ .

أما حسن التعليل فإنه واقع فى الشعر وهو اللائق بتعليلات الشعراء التى تشتمل على الطرافة والإغراب ونوع من الإثارة ولفت الانتباه التى ربما تعرض للوقوع فى السخف أو الردىء من التعليل المنزهة عنه آيات القرآن الكريم ، وكذلك لما فيه من العلة المخترعة والمتخيلة والتى تنزّه عنها القرآن الكريم .

* * *

المبحث السادس

أقسام حسن التعليل

جاء العلماء بعد الإمام عبد القاهر فحرروا هذا الأسلوب وضبطوا قاعدته وشرحوا شواهده ، وأول من فعل ذلك فعرفه بمصطلحه العلمى الذى هو عليه الآن (حسن التعليل) هو العلامة الرازى ، والذى أوعز بتقسيم هذا اللون إلى أقسامه المتعارف عليها الآن لدى المتأخرين من علماء هذا الفن هو العلامة شهاب الدين محمود الحلبى ، وتبعه فى ذلك شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى[١] ، ولكن العلامة الخطيب القزوينى بعدهما أوضح حقيقة هذا اللون البديعى فأبرز أقسامه بشواهدها التى سار عليها من جاء بعده من العلماء[٢] ، ويعد تعريف العلامة الرعينى من بعده أوضح التعاريف لهذا اللون حيث يقول : هو أن تستنبط للشىء علة مناسبة له غير حقيقية مخالفة لعلته الأصلية وشرطها أن تكون على وجه لطيف يحل بها زيادة فى مقصودك من مدح أو غيره[٣] .

وقد درج المتأخرون من العلماء على تقسيم هذا اللون من ألوان البديع إلى أربعة أقسام ، وربما استوحوا ذلك من كلام الإمام عبد القاهر فى كتابه « أسرار البلاغة » حيث أخذوا معظم شواهدهم مما قال .

والإمام عبد القاهر عندما نفى أن يحاط بأقسام هذا اللون فى قوله : « إن ما شأنه التخييل أمره فى عظم شجرته إذا تؤمل نسبه وعرفت شعوبه وشعبه . . . لا يكاد يجىء فيه قسمة تستوعبه وتفصيل يستغرقه ، وإنما الطريق فيه أن يتتبع الشىء بعد الشىء ويجمع ما يحصره الاستقراء . . . . »[٤] .

---

(١) ينظر : حسن التوسل ص ٥٥ ، نهاية الأرب ٧ / ١١٥ .

(٢) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ .

(٣) ينظر : طراز الحلة ص : ٥٦٣ .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٧ .

إنما أراد أن ذلك إنما يكون من حيث العلة المذكورة لا من حيث الصفة المعللة ، وذلك لأن مناط الحسن فى حسن التعليل ليس هو الصفة بل العلة المذكورة كما لا يخفى على المتأمل فى ذلك[1] ، ولعل فى ذلك ما يدحض فرية من يظن أن الإمام عبد القاهر كان بلاغيا فقط ، لا بل إنه كان له حسه النقدى وذوقه البلاغى ، وذلك لأنه كان يعيش بمفهوم عصره الذى كان يستخدم علوم اللغة كلها من نحو وصرف وأدب ونقد وتاريخ وكل ما يمت إلى لغة القرآن بصلة ، ليصب بذلك فى نهر البلاغة الفياض ، وما ذلك إلا لأن البلاغة هى الميدان التطبيقى الذى تجرى فى حلبته جميع علوم العربية على نحو من التكامل والتناصر[2] .

وحول تقسيم هذا اللون إلى أربعة أقسام ، يقول العلماء :

إن الوصف المعلل على قسمين : إما : ثابت تريد تعليله ، وإما : غير ثابت تريد إثباته بتلك العلة .

ثم إن الوصف الثابت على قسمين : قسم له علة خفية ، وقسم له علة ظاهرة .

* * *

(١) ينظر : التحبير ص ١٧٤ د . محمود توفيق محمد سعد .

(٢) ينظر : الفكر النقدى فى تراث الإمام عبد القاهر ص ٢٠٣ د . محمود لبدة ط ١٤٠٦هـ ١٩٨٦ م .

وصف لأقسام حسن التعليل

الوصف المعلل[1]

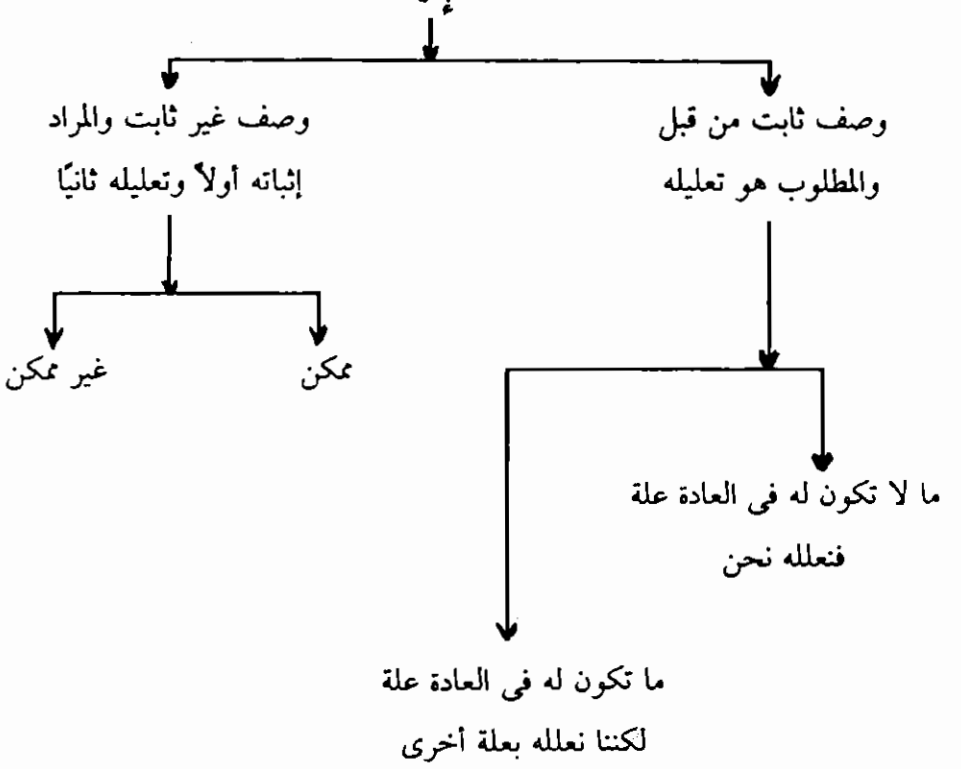

---

(١) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ وما بعدها .

وينظر كذلك البلاغة الاصطلاحية ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ د . عبده عبد العزيز قلقيلة ، ط دار الفكر العربى الطبعة الثانية سنة ١٤١١ هـ ١٩٩١ م .

فأما الوصف غير الثابت فعلى قسمين أيضا : ممكن وغير ممكن[1] .

وبذلك يتضح أن الوصف المعلل فى هذا اللون على أربعة أقسام :

(١) ثابت خفى له علة .　　(٢) ثابت ظاهر العلة .

(٣) غير ثابت ممكن .　　(٤) غير ثابت غير ممكن .

* * *

تفصيل الأقسام

● **القسم الأول** : وهو الذى يكون الوصف فيه ثابتا خفى العلة أو بمعنى آخر: ادعاء علة غير حقيقية لوصف ثابت لا تعرف له فى العادة علة ، وقد سماه أحد الباحثين المحدثين « حسن التعليل الطريف »[2] ، وذلك كقول المتنبى :

لم يحك نائلك السحاب وإنما　　حمّت به فصيبيها الرحضاء

فنزول المطر علة ثابتة للسحاب وعلتها الحقيقية غير ظاهرة ، فاستنبط الشاعر لذلك علة مناسبة غير حقيقية ، حصل بها تقوية للمعنى ولطف ، وهى : أن السحاب حسدت كرم الممدوح فحمت بسبب ذلك فسال عرقها وهى الرحضاء[3] .

وكذلك فى قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى　　فالسيل حرب للمكان العالى

فعلة كون الكريم لا مال له علة غير ظاهرة ، وعلله الشاعر بعلة حقيقية وهى أنه جعل الكريم كالمكان العالى لشرفه والمال كالماء ، فكما أن الماء لا يصعد المكان العالى فكذلك المال لا يصل إلى الكريم[4] .

ومنه أيضا ما قاله ابن نباته المصرى فى وصف فرس محجل فأحسن فى ذلك غاية الإحسان :

فكأنما لطم الصباح جبينه　　فاقتص منه وخاض فى أحشائه

---

(١) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ ، طراز الحلة ص ٥٦٣ .

(٢) ينظر : حسن التعليل .

(٣) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٩ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ ، طراز الحلة ص ٥٦٤ .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٧ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٣ .

لا يكمل الطرف المحاسن كلها حتى يكون الطرف من أسرائه

يقول إن علة الغرة والتحجيل أن الصباح لطم الفرس بين عينيه فابيض فحنق الفرس لذلك فرفس فى أحشاء الصباح فابيضت قوائمه ، فما ألطف هذه العلة وما أشد مناسبتها[1] .

ومنه أيضا قول أبى هلال العسكرى :

زعم البنفسج أنه كعذاره حسنا فسلوا من قفاه لسانه

فكون بعض نور البنفسج خارجا من ورائه صفة ثابتة وعلتها غير ظاهرة ، ولكن هذا الشاعر علل بأنه لما ادعى أنه كعذار هذا المليح ، وكانت هذه الدعوى عندهم باطلة شنيعة سلوا لسانه من قفاه[2] .

ومنه قول بعضهم :

نظر الصباح إلى صفاء جبينه فتعلقت أنفاسه الصعداء

والليل فكر فى سواد فروعه فتشبثت بمزاجه السوداء

جعل الشاعر علة تنفس الصباح غيرته من صفاء جبين هذا المليح ، وعلة سواد الليل أنه حسد فروعه وغلب عليه الحسن حتى غلبت على مزاجه السوداء[3] .

● **القسم الثانى** : وهو الوصف الثابت الظاهر العلة[4] ، أو بمعنى آخر : ادعاء علة غير حقيقية لوصف ثابت تعرف له علة فى العادة ، ويطلق عليه أحد الباحثين المحدثين : « حسن التعليل الجميل »[5] ، وذلك كقول ابن المعتز :

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت والدم فى النصل شاهد عجب

وذلك أن العلة الحقيقية فى حمرة العين هو ما حصل لها من الرمد ، وتلك

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٤٧ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٣ .
(٢) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٤٧ ، بغية الإيضاح ٤ / ٥٣ ، طراز الحلة ص ٥٦٦ .
(٣) ينظر : طراز الحلة : ص ٥٦٦ .
(٤) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٤
(٥) ينظر : حسن التعليل ص : ٢٦

علة ظاهرة ولكن الشاعر تركها وعلل بعلة أخرى غير حقيقية وهى أن حمرتها من دم من قتلت من العشاق فهى كأثر الدم فى النصل[1] .

وكذلك يعد منه أيضا ما جاء فى قول المتنبى :

ما به قتـــل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

العلة الظاهرة فى قتل الملوك لأعدائهم إنما هو دفع ضررهم والانتقام منهم بسبب مخالفتهم ، ولكن الشاعر ترك تلك العلة وأتى بعلة غير حقيقية وهى أن لا يخلف الذئاب ما وعدها من لحوم القتلى[2] .

وقال الخطيب القزوينى : وهذا مبالغة فى وصفه بالجود ، ويتضمن المبالغة فى وصفه بالشجاعة على وجه تخييلى أى تناهى فى الشجاعة حتى ظهر ذلك للحيوانات العجم ، فإذا غدا للحرب رجت الذئاب أن تنال من لحوم أعدائه ، وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق[3] ، ومنه قول الشاعر :

أتتنى تؤنبنـــى بالبكـــاء فأهـلا بهـــا وبتأنيبهـــا
تقول وفى قولهـــا حشمة أتبكى بعين ترانى بهـــا
فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبهـــا

وذلك أن العلة فى دمع المحب إما إعراض الحبيب أو اعتراض الرقيب ، ولكن الشاعر ترك تلك العلة وعلل بعلة أخرى غير حقيقية ، وهى أن العين لما استحسنت غير المحبوب أدبها المحب ، بإجراء الدموع وهذه علة لطيفة ، إلا أن فيها مؤاخذة على الشاعر : وهى اعتراض المحب بأن عينيه استحسنت غير محبوبه ، وذلك لا يليق بالمحب حبا حقيقيا[4] .

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٤٣ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٥ ، طراز الحلة ص ٥٦٩ .

(٢) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٥٨ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٥ ، طراز الحلة ص : ٥٧٠ ، معاهد التنصيص ٣ / ٥٣ .

(٣) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٤ .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٦٢ ، ١٦٣ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٥ ، طراز الحلة ص ٥٦٩ ، ٥٧٠ .

ومن ذلك القسم أيضا قول الشاعر :

صبحته عند المساء فقال لى ماذا الكلام وظن ذاك مُزاحا

فأجبته إشراق وجهك غَرَّنِى حتى توهمت المساء صباحا

فالعلة الظاهرة فى كونه صبّحه عند المساء إنما هى الغلط والدهش ، ولكن الشاعر علله بأن وجهه لما أضاء له توهم المساء صباحا[1] .

● **القسم الثالث** : وهو الوصف غير الثابت مع إمكانه[2] ، أو بمعنى آخر : أن تدعى علة غير حقيقية لوصف غير ثابت ولكنه ممكن وقد أطلق عليه أحد الباحثين المحدثين اسم « حسن التعليل المستظرف »[3] ، وذلك كقول مسلم بن الوليد :

يا واشيا حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الغرق

وقد أخذ الخطيب القزوينى هـذا الشاهد من بدر الدين بن مالك فى قوله : « فإنه لما غاير الناس وأغرب فى تحسين إساءة الواشى ، رأى أنه قد أتى بما يستبعد صدقه فاستدل على صحته بدعوى أن الإساءة حصلت تجاه إنسان عينه من الغرق بالدمع لامتناعه عن البكاء حذرا من الواشى ، وخوفا على محبوبه ، وما حصل ذلك فهو حسن ، فأثبت صحة تحسين الإساءة بإثبات علتها[4] .

وقال العلامة الرعينى فى بيان حسن التعليل فى البيت المذكور : فاستحسان الإساءة وصف غير ثابت إلا أنه يمكن وقد علل ذلك بأن إساءة الواشى تمنع المحب من أن يبكى خوف الفضيحة فيكون ذلك سببا لسلامة إنسان عينه من الغرق فى ماء الدمع ، وإذا كانت الإساءة سببا فى السلامة كان لاستحسانها وجه[5] .

ومن ذلك القسم أيضا قول الشاعر :

وأهوى الذى أهوى له البدر ساجدا ألست ترى فى وجهه أثر الترب

فسجود البدر صفة غير ثابتة وهى ممكنة ، وقد علل ذلك بوجود أثر التراب فى صفحة البدر وهو يعنى به السواد الذى يرى فيه[5] .

---

(١) ينظر : طراز الحلة ص : ٥٧١ . (٢) الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٥ .

(٣) ينظر : حسن التعليل ص : ٢٦ .

(٤) ينظر : المصباح ص : ٢٤٣ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ ، طراز الحلة ص ٥٧٣ ، معاهد التنصيص ٣ / ٥٤ .

(٥) ينظر : طراز الحلة ص ٥٧٣ .

ومنه كذلك قول الشاعر :

جزى الله الشـــدائد كل خير وإن جرعتنى غصـصى بريقى

وما شـــكرى لهـــا إلا لأنى عرفت بها عدوى من صديقى

وذلك أن شكر الشدائد صفة غير ثابتة إلا أنها ممكنة وعللها الشاعر بأنه لما علم بها العدو من الصديق استحقت الشكر عنده[1] .

ومثله أيضا قول بعضهم :

عداتى لهم فـــضل على ومنـة فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا

هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتهـــا وهم نافسونى فاكتســـبت المعاليا

فصفة الأعداء بالفضل والمنة صفة غير ثابتة مع إمكانها ، ولكن الشاعر عللها بأن الأعداء لما كانوا يبحثون عن زلات الإنسان ، كان ذلك سببا لعدم الوقوع فيها ، وكانوا ينافسونه فيحتاج إلى اكتساب الفضائل ليظهر عليهم ، فعدّ ذلك فضلا منهم ومنّة[2] .

ومنه قول ابن سناء الملك :

علمتنى بهجرها الصبر عنها فهى مشكورة على التقبيح[3]

وكذلك ما قاله أسامة بن منقذ :

قل للملول الذى تجنى وخان من بعد ملك رقى

أحسن بى لا عن اعتماد غدرُك إذ جاد لى بعتق[4]

وقول الشاعر أيضا :

أهلا وسهلا بالمشـــيب فإنه سمة العفيف وحلية الزهاد[5]

● **القسم الرابع** : وهو الذى تكون الصفة فيه لا ثابتة ولا ممكنة ، لأنه لا يتصور ذلك منه لأنه غير حى[6] ، أو بمعنى آخر : أن تدعى علة غير حقيقية لوصف غير ثابت ولا ممكن ، وقد أطلق أحد الباحثين المحدثين عليه اسم : « حسن التعليل البديع » وقال : « وهذا الأخير يعد أرقى الأنواع »[7] .

---

(١) ينظر : طراز الحلة ص ٥٧٣ . (٢) ينظر : السابق ص : ٥٧٤ .

(٣ ، ٤ ، ٥) ينظر : معاهد التنصيص ٣ / ٥٥ .

(٦) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ . (٧) ينظر : حسن التعليل ص: ٢٧ .

وذكر العلماء لهذا القسم شاهدا واحدا لازال يتكرر فى كل كتب البلاغة ؛ وهو معنى بيت فارسى ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

وذلك أن نسبة النية للجوزاء غير ثابتة ولا ممكنة لأن الإرادة لا تكون إلا من حى ، والجوزاء ليست بحية فلا يمكن فيها النية والإرادة ، وقد نسب الشاعر لها النية ، وعلل ذلك بأمارة الخدمة وهى عقد النطاق ، لأن الجوزاء صورتها صورة شخص قد انتطق[1] . وعلق على ذلك العلامة سعد الدين فى المختصر بقوله « وفيه بحث : لأن مفهوم الكلام هو أن نية الجوزاء خدمة الممدوح علة لرؤية عقد النطاق عليه أعنى لرؤية حالة شبيهة بانتطاق المنتطق كما يقال : لو لم تجئنى لم أكرمك ، يعنى : أن علة الإكرام هو المجىء وهذه صفة ثابتة قصد تعليلها بنية خدمة الممدوح فيكون من الضرب الأول .

وما قيل : إنه أراد أن الانتطاق صفة ممتنعة الثبوت للجوزاء وقد أثبته الشاعر وعللها بنية خدمة الممدوح ، فهو كونه مخالفا لصريح كلام الخطيب القزوينى فى الإيضاح ، ليس لشىء لأن حديث انتطاق الجوزاء أعنى الحالة المشبهة بذلك ثابت محسوس والأقرب أن يجعل « لو » هنا مثل « لو » فى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2] ، أعنى الاستدلال بانتفاء الثانى على انتفاء الأول ، فيكون الانتطاق علة كون نية الجوزاء خدمة الممدوح أى دليلا عليه وعلة للعلم به مع أنه وصف غير ممكن[3] .

وأجيب عن ذلك : بأن الانتطاق المذكور ليس صفة ثابتة بل هى صفة غير ممكنة الوقوع ، إذ الجوزاء ليس مما ينتطق بل وصفها بالنسبة للكواكب التى حولها تشبه الانتطاق[4] .

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٩ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ ، طراز الحلة ص : ٥٧٥ ، معاهد التنصيص ٣ / ٦٧ .

(٢) سورة الأنبياء : آية رقم ٢٢ .

(٣) ينظر : المختصر على التلخيص - بشرح التلخيص ٤ / ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٤) ينظر : عقود الجمان ٢ / ١٢٤ لجلال الدين السيوطى شرح عبد الرحمن بن عيسى العمرى ط ثانية مصطفى الحلبى سنة ١٣٧٤ هـ ، ١٩٥٥م، وعلى ذلك فإنه إذا قلنا إن الخدمة علة الانتطاق كان البيت من القسم الأول لأن الصفة وهى الانتطاق ثابتة ولها علة خفية =

وقد ذكر العلامة عبد الرحيم العباسى أمثلة لهذا القسم فوق ذلك الشاهد الذى تكرر تداوله لدى علماء البلاغة السابقين وفى مؤلفاتهم ، من ذلك قول التهامى :

لو لم يكن أقحوانا ثغر مبسمها ما كان يزداد طيبا ساعة السحر[1]

وقوله أيضا :

لو لم تكـن ريقته خمر لما تثنى غصنه وهو صاح[2]

وقول الأمير مجير الدين بن تميم فى مليح وقّاد :

لاموا على الوقاد فى حسنه وحسـنه باللـوم يزداد

لو لم يكن فى حسنه كوكبا ما كان أمـس وهو وقاد

وقول السرى الرفاء :

موقف لو لم يكن نارا لم تكن زرق عواليه شرر

ومن أمثلته الحسنة أيضا قول محمد بن هانىء :

قد طيب الأفواه طيب ثنائه من أجل ذا تجد الثغور عذابا

إلى غير ذلك من الشواهد المبثوثة فى ثنايا كتب الأدب والبلاغة[3] .

هذا وقد أشـار الإمام عبد القاهر إلى أهمية الصنعة فى ذلك اللون البديعى فقال : « والصنعة إنما يمد باعها وينشر شعاعها ويتسع ميدانها وتتنوع أفنانها حيث يعتمد الاتساع والتخييل ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطف والتأويل ويذهب بالقول مذهب المبالغة ، والإغراق فى المدح والذم والوصف والبث والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض وهنا يجـد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع ويزيد ، ويبدع فى اختراع الصور ويعيد ويصادف مضطربا كيف شاء واسعا ، ومددا من المعانى متتابعا ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع والمستخرج من معدن لا ينتهى[4] .

= والشاعر تخيل لها علة غير حقيقية وهى نية خدمة الممدوح ، فالبيت على وجه من الضرب الأول ، وعلى وجه آخر من الضرب الرابع . » ينظر التحبير : ص ١٧٧ د. محمود توفيق محمد سعد) .

(١) ينظر : سر الفصاحة : ص ٢٦٩ ، معاهد التنصيص ٣ : ٦٨ .

(٢ ، ٣) ينظر : معاهد التنصيص ٣ / ٦٨ وما بعدها .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٤ .

فهذا اللون يدل على براعة الشعراء وقدرتهم على تكييف ما يلاحظونه من موضوعات وعلى تعديلها وتشكيلها ، وبالتالى القدرة على تحويل الواقع المادى إلى مثال حىّ [1] .

فهو يعتمد على المهارة الذهنية والاتكاء على الخيال فى تطريز أثواب جميلة من العلل يقبلها العقل وتطمح إليها النفس ·

* * *

(١) ينظر: النقد التحليلى عند عبد القاهر الجرجانى ص : ٢٦٦ ، د · أحمد السيد الصاوى ط · الهيئة المصرية العامة للكتاب ·

المبحث السابع

ما يلحق بحسن التعليل

ذكر العلماء أن هناك شواهد فيها تعليل ولكن لا يتحقق فيها حسن التعليل ، وإنما تكون مما يلحق بحسن التعليل ، وذلك لابتناء الأمر فيها على الشك ، وحسن التعليل إنما تكون العلة فيه على سبيل الإصرار والقطع والشك ينافيه[1] ، وقد قال الإمام عبد القاهر : ومما يلحق بهذا الفصل قوله :

رحـــل العـــزاء برحلـــتى فكأننى أتبعته الأنفاس للتشييع

وذلك أنه علل تصعد الأنفاس من صدره بهذه العلة الغريبة وترك ما هو المعلوم المشهور من السبب والعلة وهو التحسر والتأسف .

والمعنى رحل عنى العزاء بارتحالى عنكم أى عنده ومعه أو به أو بسببه فكأنه لما كان محل الصبر الصدر وكانت الأنفاس تصعد منه أيضا صار العزاء وتنفس الصعداء كأنهما نزيلان ورفيقان فلما رحل ذاك كان حق هذا أن يشيعه قضاء لحق الصحبة[2] .

وقول أبى تمام :

ربى شفعت ريح الصبا لرياضها إلى المزن حتى جادها وهو هامع

كأن السحاب الغر غيبن تحتـــها حبيبًا فمـــا ترقا لهـن مدامع

فقد علل الشاعر على سبيل الشك نزول المطر من السحاب بأنها غيبت تحتها حبيبا فهى تبكى عليه »[3] .

وعلق العلامة الشيخ محمد الخضر حسين على هذا البيت قائلا : « فلو حذفت أداة التشبيه هنا لكان الباقى بمنزلة العلة الخيالية لنزول الغيث المنسجم من ينابيع

(١) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ ، المطول ص ٤٣٨ .

(٢) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ ، المطول ص ٤٣٨ .

السحاب ، واقترانه بأداة التشبيه ويجعله بحيث يسكت عنه العقل ولا يمانعه من أن يدخل فى سبيل المعانى الصادقة ، ومما نظمت على هذا المثال ، وكان الجو يقذف وقت السحر بنثار من الثلج :

كأنى أذيب الصبح بالحدق التى يقلبها وجدى وتلك سبائله »[1]

ومما يلحق بحسن التعليل أيضا ما بنى الأمر فيه على التعجب ، يقول العلامة العلوى اليمنى : « وألحق به ما هو بمعناه وهو التعجب ،كقوله :

أيا شمعا يضىء بلا انطفاء ويا بدرا يلوح بلا محاق

فأنت البدر ما معنى انتقاصى وأنت الشمع ما معنى احتراقى »[2]

وأرجى العلامة الشيخ عبد الرحيم العباسى هذا النوع بالعديد من الأمثلة الموضحة لما يلحق بحسن التعليل فيقول : « ومنه قول محمد بن أبى زرعة :

كأن حصَّين باتا طول ليلهما يستمطران على غدرانها المقلا

ومنه قول ابن رشيق وقد غاب المعزُّ صاحب إفريقيّة عن حضرته وكان العيد ماطرا :

تجهم العيد وانهلت بوادره وكنت أعهد منه البشر والضحكا

كأنما جاء يطوى الأرض من بُعد شوقا إليك فلما لم يجدك بكى[3]

إلى غيره من الأمثلة العديدة التى ساقها موضحا ومؤكدا وجود ذلك اللون فى الشعر العربى ومدى البراعة والافتنان عند هؤلاء الشعراء فى صوغهم للعلة الشعرية ، التى لها تأثيرها فى نفس السامع والقارىء .

* * *

(١) ينظر : الخيال وأثره فى الشعر العربى ص ٢٩ .

(٢) ينظر : الطراز ٣ / ١٤٠ .

(٣) ينظر : البلاغة التطبيقية ص : ١١١ حسن علوان ومحمد أحمد برانق ، المطبعة الرحمانية سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٧ م .

المبحث الثامن

حُسْنُ التعليل والتشبيه

قد يأتى التشبيه مشتبكا مع حسن التعليل فيتساءل متسائل : ما العلاقة التى تجمع بين هذا وذاك ؟ ، لكن بقليل من التأمل وإمعان النظر يتجلى لنا أن التخييل المعلل قد يأتى فى بعض صوره معتمدا على التشبيه فى التقريب من الحقيقة ، وهو فى ذلك يعتمد على ذكاء الشاعر وشدة لماحيته فى ملاحظة ضروب من العلاقات التى تعطى حسن التعليل شبها من الحق ورونقا من الصدق ، وقد مدح الإمام عبد القاهر تلك الطريقة وهو يتحدث عن التعليل المخيل فقال : « وينبغى أن تعرف أن باب التشبيهات قد حظى من هذه الطريقة بضرب من السحر لا تأتى الصفة على غرابته ، ولا يبلغ البيان كنه ما ناله من اللطف والظرف ، فإنه قد بلغ حدًّا يبز المعروف فى طباع الغزل ، ويلهى الثكلان ، وينفث فى عُقَد الوحشـــة ، وينشد ما ضل عنك من المسرَّة ، ويشهد للشعر بما يطيل لسانه فى الفخر ، ويبين جملة ما للبيان من القدرة والقدر »[1] .

والعلاقة بين التشبيه وحسن التعليل فى ذلك ربما تكون راجعة إلى أن أصل كل واحد من الفنين مركوز فى طباع النفس الإنسانية ومطمور فى أعماقها ، وذلك لأن التشبيه قائم على القياس كما يقول الإمام عبد القاهر : « والتشبيه قياس يجرى فيما تعيه القلوب وتدركه العقول وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان »[2] ، والقياس كما يقول علماء الأصول : « رد الفرع على الأصل بعلة »[3] فهما بذلك يعدان من مرتكزات الفطرة الإنسانية إلا أن بينهما فرقا من حيث مادة كل منهما ،

(١) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ٤٥ . (٢) ينظر السابق ١ / ١١٢ .

(٣) ينظر حاشية النفحات على شرح الورقات ص ١٤٣ الخطيب الحاوى ط مصطفى البابى الحلبى .

وذلك أن مادة التشبيه موجودة ومنبثة فى أعماق الكائنات ، وما دور الشاعر فيها إلا أنه كالغائص على الدر ، فيقوم بالتقاط هذه المقايسة ؛ بخلاف حسن التعليل فإن المادة فيه قائمة على التخيل وهو كما يقول الإمام عبد القاهر : « ما يثبت فيه الشاعر أمرا غير ثابت أصلا ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصيلها ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى »[1] .

ومع ذلك وعلى الرغم من التباعد بين التشبيه وحسن التعليل إلا أن الشاعر الحاذق الماهر فى صنعته الفنية يستطيع أن يجعل بينهما تعانقا وتشابكا وثيقا ، وذلك حين يجعل التشبيه مقدمة دعوى ويجعل التخييل احتجاجا لتلك الدعوى ويكون نوع الاحتجاج أمرا لا ينكر بل هو موجود بيد أنه فى غير عالم ما ادعى له فى تلك المقدمة البادية فى أسلوب تشبيهى ، فإذا التخييل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره ، وأن ما تعلق به من العلة موجود على ظاهر ما ادعى[2] .

وأوضح الإمام عبد القاهر أن ذلك يجىء على طبقات ويأتى على درجات :

فمنه ما يجىء مصنوعا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق حتى أعطى شبها من الحق وغشى رونقا من الصدق باحتجاج يخيل وقياس يصنع فيه ويعمل ، ومثاله قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكـان العالى

فهذا البيت كما يتجلى لنا اعتمد على دعامتين أساسيتين فى التصوير هما : حسن التعليل المعتمد على التشبيه الضمنى فى تقريب الحقيقة ، وكما يقول الإمام عبد القاهر : « قد خيّل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة فى قدره ، وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه وعظم نفعه وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام لا تحصيل وإحكام ، فالعلة فى أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب وتمنعه عن الانسياب وليس فى الكريم والمال شىء من هذه الخلال[3] .

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٦ .

(٢) ينظر : التحبير ص ١٧٨ وما بعدها د . محمود توفيق محمد سعد .

(٣) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ ، ١٢٩ .

فالشاعر - كما يقول الدكتور / محمد أبو موسى -: « وهو يعلل هذا النهى عن الإنكار بأن السيل لا يستقر فى الأماكن العالية يطوى وراء ذلك : تشبيه الكريم بالقمة العالية وأنه بين القوم متميز تميز الهضبة عن السهول والبقاع وكأن ذلك أمر مفروغ منه ، وإنما نصبة الكلام وهيئته أن ينبه صاحبته إلى ما ينبغى أن تتنبه إليه من أن الكرام ليسوا هم الذين يتقممون المال كما تلحس الكلاب الجيفة بلسانها وإنما هم هؤلاء القمم الشامخة التى ينحدر عنها السيل إلى تلك البقاع العفنة ... والشبه بينهم وبين قمم الروابى ليس موضع الحديث ، وإنما القصد إلى أن ينبه إلى ما يقتضيه ذلك من عدم التعجب من قلة المال فى أيديهم ، وهذا معنى جليل جرى فى أسلوب مقتدر على الوحى بالمعنى ، وبثه فى القلب بطريق خفى خالب »[1] ، ومرجع ذلك إنما هو إلى فنية الصنعة من الشاعر ، حيث بنى حسن التعليل على ذلك التشبيه الضمنى المنبث فى تلك المضامين الشعرية .

وأكثر ما يجىء هذا الضرب من التعليل المخيل القريب من الحقيقة فى باب التمثيل الشاخص فى أعقاب المعانى ، ويتضح ذلك فى قول الإمام عبد القاهر : « فتأمل بيت أبى تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

مقطوعا عن البيت الذى يليه ، والتمثيل الذى يؤديه ، واستقصى فى تعرف قيمته على وضوح معناه وحسن مزيته ، ثم أتبعه إياه :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وانظر هل نشر المعنى تمام حلته ، وأظهر المكنون من حسنه وزينته ، وعطرك بعرف عوده وأراك النضرة فى عوده وطلع عليك من مطلع سعوده ، واستكمل فضله فى النفس ونبله ، واستحق التقديم كله إلا بالبيت الأخير وما فيه من التمثيل والتصوير[2] .

فأبو تمام يثير قضية ويعلل لها بأمر لا ينازع فيه من واقع الحياة فأكد القضية وجعلها راسخة وثابتة فى نفس المستمع ووجدانه[3] .

فالإمام عبد القاهر يشير إلى أن التعليل المخيل قد يأتى معتمدا على التشبيه

(١) ينظر: التصوير البيانى ص٧٥، ٧٦ د . محمد أبو موسى ط مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) ينظر : أسرار البلاغة ١ / ٢٢٩ .

(٣) ينظر : التحبير ص ١٨١ ، ١٨٢ د . محمود توفيق محمد سعد .

كمـا مر ، وكما فى قوله :« ومن هذا النمط العالى فى أنه تخييل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره وأن ما تعلق به من العلة موجود على ظاهر ما ادعى قوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السـماء ترجى حين تحتجب

فاستئار السماء بالغيم هو سبب رجاء الغيث الذى يعد فى مجرى العادة جودا منها ونعمة صادرة عنها[1] . فالملاحظ فى ذلك أن الشاعر معتمد فى التعليل لقضيته على التشبيه الضمنى ، وذلك مما يعطى العلة بهاء ورونقا وحيوية فى التشخيص وإظهار ما ليس بواقع معللا كأنه واقع ، ومنه أيضا قول مسلم بن الوليد :

إن يقعدوا فوقى لغير نزاهة وعلوّ مرتبـه وعز مكـان

فالنار يعلوها الدخان وربما يعلو الغبار عمائم الفرسان[2]

حيث جعل علو الدخان فوق النار وعلو الغبار عمائم الفرسان علة فى ارتفاع الأسافل على الأكابر وذلك أيضا مبنى على التشبيه الضمنى .

وقد لا يكون « حسن التعليل » معتمدا على التشبيه ، وهـذا ما بينه الإمام عبد القاهر بقوله :

فمن الغريب فى ذلك معنى بيت فارسى :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليـها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى أعنى ما أصله التشبيه ، ثم أريد التناهى فى المبالغة والإغراق فى الإغراب »[3] .

ويشير الإمام عبد القاهر أيضا إلى « حسن التعليل » الواقع بين الضربين الماضيين فيقول : « ويدخل فى هذا الفن قول المتنبى :

لم يحك نائلك السحاب وإنما حمّت به فصبيبها الرحضاء

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث وأنه وضع المعنى وضعا وصوره فى صورة خرج منها إلى ما لا أصل له فى التشبيه فهو كالواقع بين الضربين[4] ، ويقول الشيخ محمد الخضر حسين - رحمه الله تعالى - وربما يصاغ التعليل فى قالب التشبيه كقول أبى تمام :

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) ينظر : ديوان صريع الغوانى ص : ٣٤٢ القطعة ١٨٩ تحقيق د . الدهان طـ ثانية دار المعارف بمصر .

(٣ ، ٤) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٨ ، ١٣٩ .

ربى شفعت ريح الصبا لرياضها إلى المزن حتى جادها وهو هامع

كأن السحاب الغرّ غيبن تحتهـا حبيبـا فمـا ترقا لهـن مدامع

فلو حذفت أداة التشبيه هنا لكان الباقى بمنزلة العلة الخيالية لنزول الغيث المنسجم من ينابيع السحاب واقترانه بأداة التشبيه يجعله يسكت عنه العقل ولا يمانعه من أن يدخل فى سبيل المعانى الصادقة ، ومما نظمت على المثال وكان الجو يقذف وقت السحر ينثار الثلج :

تطاول هذا الليـل والجو مزبد فضاقت بأمواج الثلوج مسالكه

كأنى أذيب الصبح بالحدق التى يقلبها وجـدى وتلك سبائكه[1]

وهكذا تتجلى لنا من خلال التحليلات الرائدة لهذا الفن من الإمام عبد القاهر مدى البراعة والدقة فى هذا اللون البلاغى ، وروعة التصوير والتشخيص فى محاولة تقريب الخيال من الحقيقة .

وحقا كما يقول العلامة ابن جنى : « إن من يديم التنقير والبحث والتأمل فى هذه اللغة المباركة ليجد أنها تملك من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك على جانب الفكر ، حتى يطمح به أمام غلوة السحر »[2] .

* * *

(١) ينظر : الخيال وأثره فى الشعر العربى ص: ٢٨ ، ٢٩ الشيخ محمد الخضر حسين.

(٢) ينظر: الخصائص ١ / ٤٨ . ابن جنى تحقيق محمد على النجار ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر .

المبحث التاسع

حُسْنُ التعليل

فى الأدب العربى

اهتم الشعراء والكتاب بهذا اللون البلاغى وذلك الصبغ البديعى ، لما به من جليل الخطر وعظيم الأثر فى الأدب العربى فهو يدل على رسوخ ملكة الإبداع فى فن القول لدى الكتاب والشعراء ، وقد أشار إلى ذلك الإمام عبد القاهر الجرجانى فى قوله : « وهو أن يدعى فى الصفة الثابتة للشىء أنه إنما كان لعلة يصفها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور »[1] .

ولقد كان لهذا اللون أصالته فى لغة العرب الخالدة خلود القرآن الكريم ، وذلك أننا عندما ننظر مثلا فى قول امرىء القيس :

وما جبنت خيلى ولكن تذكرت مرابطهـــا من بر بعيص وميسرا

نجد أن امرأ القيس فى هذا البيت قد اعتذر ، وذلك بأن جعل أصحابه غير منهزمين لجبن أدركهم أو ضعف استولى عليهم ولكنهم ذكروا الوطن والأهل، وقيل: إن هذا الاعتذار عليه لا له[2] .

وقد أطلق العلامة ابن رشد على مثل هذا اللون اسم« التصديق الصناعى»[3] ، لما له من أثر فى الإقناع البلاغى ولكن بعض الباحثين المحدثين ذكر أن حسن الاعتذار يعد اللبنة الأولى ، والجذر الأساسى بل والمادة الخام لوجود « حسن التعليل » وتطوره ونموّه إلى الصورة التى هو عليها الآن عند علماء البلاغة .

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٩ .

(٢) ينظر ديوان امرىء القيس ص : ٧٠ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طـ ثانية دار المعارف .

(٣) ينظر تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر ص : ١٦١ لابن رشد ، تحقيق : د. محمد سليم سالم ، القاهرة سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

وذلك لما فى حسن الاعتذار : من التماس حجج نظرية تثبت براءة مرتكب النقيصة وإن لم يكن بريئا من ذلك اعتذار دريد بن الصمة عن اشتراكه مع قبيلته فى حرب لم تكن من رأيه حيث يقول :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ومن ذلك أيضـــا اعتذار الفرزدق حين نبا السيف فى يده إذ هم بقتل الأسير فقال :

لم ينب سيفى عن رعب ولا دهش عن الأسيـــر ولكن أخر القدر[1]

وبالبحث والتنقيب فى كتب الأدب والشعر يتضح لنا أن ذلك الصيغ البديعى يعد من أظهر الألوان البلاغية التى راجت وبخاصة فى أدب الأندلسيين بعد السجع ، إذ لاقت تلك الألوان إقبالا من الأدباء واكتسبت منهم الأشياع والأنصار ، حيث أولعوا به وأكثروا من استخدامه حتى صـــار مذهبا من مذاهبهم ، ومـــن هـــؤلاء ابن خفاجة الأندلسى ، حيث يصف جبلا اعترضه فيتحدث قائلا على لسانه :

---

(١) يراجع فى ذلك اعتذارات النابغة ، وقد أشار هذا الباحث أيضا إلى أن حسن التعليل فى تطوره إلى الصورة المثلى التى هو عليها الآن قد مر بخمسة أطوار : **أولا : حسن الاعتذار** · كما مر ، **والثانى : حسن التعليل المعلق** : وهو الذى يدعى فيه الشاعر علة غير حقيقية ولكن نفسه وضميره لا يساعدانه على ذلك خوف الكذب ، فيحتال لذلك بحيلة لطيفة هى إدخال الشرط وما يفيده من التعليق كقول النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصـــائب
جوانـــح قد أيـــقن أن قبيـــــله إذا ما التقى الجيشان أول غالب

وقد أفدنا أن ذلك يعد مما يلحق بحسن التعليل ·

الثالث : حسن التعليل الظنى : وهو ما دخله الشك والريب ، كقول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وذلك يعد أيضا مما يلحق بحسن التعليل ·

الرابع : حسن التعليل الاحتمالى : وهو الذى لا تكون عبارته نصا فى الموضوع كقول النجاشى :

وما سمى العجـــــلان إلا لقوله خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

الخامس : حسن التعليل الحقيقى بأقســـامه الأربعة · ينظر حســـن التعليل ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ·

وما خفق أيكى غير رجفة أضلع ولا نوح ورقى غير صرخـه نادب
وما غيض السلـوان دمعى وإنما نزفت دموعى من فراق الصواحب

وكان هذا اللون شائعا فى أشعار الأندلسيين جميعا وقلما خلا منه شعر شاعر[1].

وممن أغرم كذلك بهذا اللون - وهو من بين من سلكوا طريقة القاضى الفاضل الشاعر ابن نباته المصرى ، فقد أكثر منه كثرة غامرة حتى بلغ فيه شأوا بعيدا ، من ذلك قوله :

وما سمى الغيث الهتون سحابة سوى أنه من حجلة يتسحب

وقوله :

شكرا لأقلامك اللائى جرت لمدى فى الفضل أبقى لباغى شأوه التعبا
حلت وأطربت المصفى وحزت بها فضل السباق فسماها الورى قصبا

فهو يعلل لتسمية الأقلام قصبا بعلل خيالية ثلاث :

بالحلاوة وقصب السكر حلو ، وبالإطراب والقصب المثقب مطرب ، وبالسبق بها جميع الأنداد فهى قصب السبق[2] .

ومن ذلك قول ابن عمار وقد أخرج من الأندلس :

علَىَّ وإلا ما بكـاء الغـمائم وفىّ وإلا ما نياح الحمـائم
وعنـىّ أثار الرعد صرخة طالب لثأر وهزّ البرق صفحة صـارم
وهل لبست زهر النجوم حدادها لمثلـى أو قامت له فى المآتم
وهل شققت هوج الرياح جيوبها لغيرى أو حنَّت ضين الروائـم

فعلل هذه الأشياء غير ظاهرة ، ولكن الشاعر علل بأن ذلك كله إنما كان بسببه[3] .

وكذلك ما قاله ابن حمديس الصقلى فى الخال حيث أجاد وأحسن :

يا سالبا قمر السماء جماله ألبستنى فى الحزن ثوب سمائه

(١) ينظر : الصبغ البديعى ص ٣٥٤ .
(٢) ينظر : السابق ص : ٣٦٨ .
(٣) ينظر : ص ٥٦٦ من كتاب طراز الحلة وشفاء الغلة للرعينى.

أشعـــلت قلبى فارتمى بشرارة علقَتْ بخدّك فانطفت فى مائه

فالشاعر علل الخال بأنه شرارة نار قلبه وقعت فى ماء خده فانطفت ، وقوله :

« ألبستنى فى الحزن ثوب سمائه » يعنى لونا أزرق ، وهى عادة أهل الأندلس إذا حزنوا لبسوا الثياب الزرق[1] .

وقال ابن نباتة أيضا :

لم يزل جوده يجور على الما ل إلى أن كسا النضار اصفرارا

فقد علل لاصفرار النضار بأنه من سبب ما أصابه من الألم من شدة جور جوده على المال[2] وقال ابن الرومى :

وغـــزال ترى علـــى وجنتـــيه قطر سهميه من دماء القلـــوب

جرّحته العيون فاقتـــص منـــها بجوى فى القلوب دامى الندوب[3]

وقد سبقه أبو تمام إلى هذا المعنى فقال :

أدميت باللحظات وجنته فاقتص ناظره من القلب[4]

وقال ابن الرومى أيضا :

أما ذكاء فلم تصفر من فرق إلا لفرقة ذاك المنظر الحسن

فقد جعل علة اصفرار الشمس أنه إنما كان بسبب الحزن على فراق المنظر الحسن[5] .

* * *

(١) ينظر : السابق ص ٥٦٨ .

(٢) ينظر : البلاغة التطبيقية ص : ١١٣ . حسن علوان ، محمد أحمد برانق ، مطبعة المعارف ١٩٣٧ م

(٣) المثل السائر ٣ / ٢٤٠ ابن الأثير تحقيق د. بدوى طبانة ، التبيان ص٣٢١ الطيبى .

(٤) السابق .

(٥) البلاغة التطبيقية ص ١١٣ . حسن علوان ، محمد أحمد برانق .

وقال بعض الأندلسيين :

قالوا الحبيب شكا جعلتُ فداءه رمدا أضر بعيـــنه كالعندم

فأجبتهـــم : مازال يفتك لحظه فى مهجتى حتى تلطخ بالدم

فالشاعر قد جعل الحمرة التى تظهر فى عين الحبيب من دم محبه لا من أثر الرمد الذى أصاب العين ·

وقال الأرجانى :

أبدى صنيعك تقصير الزمان ، ففى وقت الربيع طلوع الورد من خجل

الشاعر هنا أيضا جعل السبب حمرة الورد هو الخجل من تقصير الزمان وتلك علة غير حقيقية وقال بعضهم فى معذَّر :

ومعذر رقت حواشـى وجهه فقلوبنـــا وجدا عليـــه رقاق

لم يكس عارضه السواد وإنما نفضت عليه سوادها الأحداق

فقد علل سواد العذار بأنه من سواد العيون وتلك أيضا علة غير حقيقية ·

وقال بعضهم أيضا فى الشقائق :

ورياض من الشقـائق أضحت يتهادى بها نســـيم الرياح

زرتها والغمام يجلدُ منهـــا زهرات تفـــوق لون الراح

قلت ماذنبها ، قال مجيبـــا سرقت حمرة الخـــدود الملاح[1]

فالشاعر علل نزول الغمام فوق الزهر بأنه جلد لها عقابا على سرقتها حمرة الخدود ·

وفى العصر الحاضر قالت السيدة عائشة التيمورية أيضا :

علام تصـــــدنى وأراك دوما تميل مع الهوى يا غصـــــن بان

رويدك قد قتلت من التصـــابى وذاك دمى بأطراف البنـــــان[2]

وقال الشيخ : محمد الخضر حسين رحمه الله تعالى : ومما صنعت على النمط وقد أخذ البَرَد يتساقط فى حديقة :

---

(١) ينظر : البلاغة التطبيقية ص ١١٢ ·

(٢) ينظر : المرشد فى علوم البلاغة ٢ : ٢٠٤ : ٢١١ محمد عبده طلبة ، محمد رزق الدهشان ·

هزَّ النسيم غصون الروض فى سحر كـــما يهز بنانُ الغـــادة الوترا
لذَّ الخفيف على أذن الســـحاب أما تراه يحثو على أدواحـــها دررا

وقلت وقد أخذت الريح تنسف فى روض :

قام هذا الروض يشدو مادحا بلسان البلبل الزاهى سحـابا
وتمادى غاليـــا فى مدحـــه فحثت فى وجهه الريح ترابا

وقلت فى حمرة شفق :

قتل الدجى هذا النهار ودسَّه تحت التراب مضـــرجا بدمائه
فخذوا من الشفق الشهادة إنه لطْخ من الدم نال ذيل ردائه[1]

وقال الشاعر أحمد شوقى :

أبا الهول ويحك لا يســـتقلُّ ـل مع الدهر شىء ولا يحتقـر
تهزأت دهرا بديك الصـــبا ح فنقّر عينيـــك فيمـــا نقر
أسال البياض وسلَّ الســـواد وأوغـــل منقـــاره فى الحـــفر

البيت السّابقُ تمهيد لما بعده ، والمقصود بديك الصباح : الزمن ، والعلاقة بين الديكة وبين الصباح من ناحية صياحها فيه معروفة وهذا تخييل شعرى جميل ومن بارع حسن التعليل ، وذلك بأن جعل الشاعر عبث الدهر بأبى الهول وتشويهه خلقه حتى أسال بياض عينيه وسل سوادهما هو هزء بأبى الهول به وسخريته منه وعدم اكتراثه له ، ثم تعبير عن الدهر بديك الصباح فيه ما فيه[2] .

ثانيا : حسن التعليل فى النثر :

وحسن التعليل لم يقتصر على الشعر فقط بل شارك النثر فيه أيضا ، وذلك أن المنثور من الكلام يشارك الشعر فى اشتماله على الصور الخيالية ، حتى فشا هذا التعليل فى نثرهم وازدهر فى أسلوبهم ودل على ذوق لطيف وحسن شفيف ، وخيال مبتكَر وذهن مقتدر[3] ، وإن كان نصيب الشعر من تلك العلة الشعرية أوفر وهو بها

(١) ينظر : الخيال وأثره فى الشعر العربى : ص : ٢٨ الشيخ محمد الخضر حسين .
(٢) ينظر : الشوقيات ١ / ١٣٥ . ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٧٠م .
(٣) ينظر : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ٦ / ٤٠٧ . محمود رزق سليم . ط وزارة الثقافة والإرشاد القومى بمصر سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ م .

أعرف ، كما يمتاز - الشعر - بأحد أنواع التخييل وهو ما لا يتوخى فيه صاحبه وجه الحق ، وإنما يقصد إلى اختلاب العقول ومخادعة النفوس إلى التثبت بغير الحق[1] .

ومن أمثلة حسن التعليل فى النثر قول بشار بن برد : الحمد لله الذى ذهب ببصرى ، فقيل له : ولم يا أبا معاذ ، فقال : لئلا أرى ما أبغض[2] .

وكذلك قول شهاب الدين الحلبى فى وصف الخيل : « ومن أدهم حالك الأديم ، حالى الشكيم ، له مقلة غانية وسالفة ريم ، قد ألبسه الليل برده ، وأطلع بين عينيه سعده ، يظن من نظر إلى سواد طرته وبياض حجوله وغرته ، أنه توهم النهار نهرًا فخاضه ، وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضة»[3] .

فحسن التعليل باد فى قوله : « ألبسه الليل برده » فهو يعلل سواده بأن الليل أعاره ثيابه وكذلك فى قوله : « توهم النهار نهرًا فخاضه ، وألقى بين عينيه ... الخ » وهما تعليلان لا تعليل واحد ، وكلاهما فى غاية الإبداع ودقة الاختراع ، مع السهولة والوضوح ، فهو يعلل وجود الحجول البيض فوق حوافر الأدهم ، ووجود الغرة فى جبهته بأن الأدهم توهم النهار نهرا ، وهو تخيل أو توهم لطيف استطاع به الكاتب المتمكن من نقل خيال السامع من جريان الأدهم فى النهار إلى تيار النهر يخوضه بأقدامه فأحاط تيار الماء بحوافره وطارت رشاشة منه إلى جبهته فتركت به غرة[4] .

وكذلك قول الأديب الأستاذ مصطفى لطفى المنفلوطى - رحمه الله - : الأصدقاء فى هذا الزمن يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر ، فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير . وكذلك قولهم : إنما تهتز الحقول بالنبات لتلهم الفلاّح النشاط وتعزيه عما هو فيه من فرط النكبات[5] .

إلى غير ذلك العديد من الأمثلة والشواهد المزجاة فى كتب الأدب والأشعار

---

(١) ينظر : الخيال وأثره فى الشعر العربى ص ١٢ .

(٢) ينظر : حسن التعليل ص : ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) حسن التوسل ص ١٤٢ شهاب الدين محمود الحلبى ط الوهبية بمصر ١٣٥٥هـ .

(٤) ينظر : المرشد فى علوم البلاغة ٢ / ٢١١ محمد عبده طلبه ، محمد رزق الدهشان مطبعة سعد بالفجالة ١٩٣٧ م .

(٥) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٤٧ .

والبلاغة والتى تدل على أصالة هذا الفن ، ومدى الإبداع فيه عند الكتاب والشعراء فى الأدب العربى .

وهذا الفن بحاجة دائمة إلى الفكر المتجدد والثقافة النابضة والجرأة فى الرأى إلى جوار ما يحمل من حبكة فنية - وقد أشار الإمام عبد القاهر الجرجانى إلى ما أحدثه المبدعون فى هذا اللون البديعى من فنون وطرائف فقال : وقد اتفق للمتأخرين من المحدثين فى هذا الفن نكت ولطائف وبدع وطرائف لا يستكثر لها الكثير من الثناء ولا يضيق مكانها من الفضل عن سعة الإطراء » .

وبذلك يكون قد تبدى لنا بالحسن التعليل أو « التعليل المخيل » من أثر فى فنون الأدب وألوانه ، وماله من كبير الأثر فى النفوس ، وأنه ليس - كما يُظنُّ - حلية من حلى البلاغة أو طلاء خارجيا لها ، وإنما هو منها فى الصميم لحاجة المتأدبين إليه ، ولما له - كذلك - من بديع الأثر فى طلاوة الكلام وبهائه .

* * *

خاتمة واستنتاج

فى هـذا البحث تحدثت عن أهمية « حسن التعليل » وموقعه فى البلاغة العربية ، وكشفت عن أنه لون من ألوان الإقناع البلاغى فى اللغة ، وأنه - كذلك - يعد - أيضا - من آثار المعانى الثانية فى الأدب ، وأن سر الحسن فيه إنما يرجع إلى ما يحمل ذلك اللون من الصنعة ومن الطرافة والخيال المقرب من الحقيقة حيث يرينا ما ليس بواقع متخيلا كالصحيح الواقع ، وأبنت أيضا حقيقة هذا اللون ومعناه عند علماء البلاغة ، وأننا لا نسال فى حسن التعليل عن جوهر العلة كما هو الحال فى الفلسفة وعلم أصول الفقه ، وإنما نبحث عن فنيتها والبراعة فى تصويرها مع المعلول فى إطار من التناسب ، وكشفت اللثام كذلك عن عـدم سداد تعريف العلامة صفىّ الدين الحلى ، والعلامة ابن حجة الحموى وبينت أن تعريفهما له إنما ينطبق على « التعليل » وهو ليس من فنون البديع كما لا يخفى .

ثم فرقت - بعد ذلك - بين التعليل وحسن التعليل وأبنت أن التعْليل واقع فى القرآن الكريم ويقع فى الشعر ، أما « حسن التعليل » فلا يقع إلا فى شعر الكلام ونثره ، ولا يقع فى القرآن الكريم لتنزه القرآن عنه .

كما أوضحت أن العلماء قد اشترطوا لأن تكون العلة من البديع ثلاثة شروط :

١ - أن تكون العلة غير حقيقية .

٢ - أن تكون على وجه لطيف .

٣ - أن تكون على سبيل الإصرار والقطع .

وتحدثت عن تاريخ هذا اللون وأنه موجود فى تراث السابقين ، وأنه ربما لم يوجد فى شعر الجاهليين لعدم ميلهم إلى الإغراق فى الخيال ، ورددت على ما يمكن أن ينسب إليهم فى ذلك ، وأشرت إلى أنه لا يمكن أن نصل إلى نتيجة حاسمة لتحديد أول من استعمله من الشعراء - كما فعل بعض الباحثين المحدثين - وأن ذلك إنما يستوجب علينا أن نستقصى أشعار الشعراء ودواوينهم لنصل إلى نتيجة مرضية بالاستقصاء والتتبع والمقارنة والموازنة ، وذكرت أن أول من أشار إليه من العلماء هو

العلامة « ابن سنان الخفاجى » فى كتابه « سر الفصاحة » والإمام عبد القاهر الجرجانى حيث عقد له فصلا فى كتابه « أسرار البلاغة » وهو وإن كان لم يحرر القاعدة ويذكر المصطلح إلا أنه أزجى هذا الفن بالعديد من الأمثلة والشواهد التى اعتمدها للتأصيل لهذا الفن من جاء بعده من العلماء .

وأول من ذكر مصطلح هذا الفن « حسن التعليل » الإمام فخر الدين الرازى ، وأول من ألمح إلى تقسيمه إلى الأقسام المتعارف عليها لدى علماء البلاغة هو العلامة: شهاب الدين محمود الحلبى فى كتابه « حسن التعليل » حتى جاء العلامة الخطيب القزوينى وأوضح حقيقته وميَّز أقسامه على النحو الذى سار عليه من جاء بعده من العلماء ، ويعد أوضح التعاريف لذلك كله هو تعريف العلامة الرعينى ، ثم ذكرت بعد ذلك « حسن التعليل » وموقعه فى عيون النقاد وموازينهم من القدماء والمحدثين وبخاصة من يرى من المحدثين أن « حسن التعليل » يمكن أن يعد من المغالطة ، وأنه يمكن أن يعد من التعليل وأنه لا حسن فيه ، ويمكننا تسميته « بالتعليل البلاغى » ورددت على ذلك كله فى موطنه من البحث كما أوضحت عدم سر وقوع هذا اللون فى القرآن الكريم لتنزه القرآن الكريم عنه وذلك لاعتماد حسن التعليل على الطرافة والإغراب وجذب الانتباه والإثارة بما يخترعه من العلة ، ومما يوقع أحيانا فى السخيف والردىء من التعليل ، والذى لا يتفق وبلاغة القرآن الكريم ، ورددت ما ذكره الدكتور حفنى محمد شرف من أن قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1] من حسن التعليل ، وردّه فى ذلك على المرحوم الشيخ / عبد المتعال الصعيدى ، وأبنت بما لا يدع مجالاً للشك على هدى من آراء العلماء ، أن هذه الآية ليست من « حسن التعليل » كما يذكرالدكتور ، وإنما هى من « المذهب الكلامى » الذى عبر عنه العلماء بدليل التمانع .

ثم عرجت بعد ذلك كله على دراسة أقسام هذا اللون التى اعتمدها المتأخرون من العلماء وأرجيتها بالعديد من الأمثلة الشارحة والموضحة والمعضدة ، ولم أقف عند ما ذكره العلامة الخطيب القزوينى من أمثلة وشواهد ، ثم أردفت ذلك بدراسة ما يعرف لدى علماء الفن باسم « ما يلحق بحسن التعليل » ، وأوضحت السر فى عدم كونه من « حسن التعليل » وسبب إلحاقه به .

---

(١) سورة الأنبياء: آية رقم ٢٢ .

وأخيراً ختمت البحث بموقع هذا اللون وذلك الصبغ البديعى فى الأدب العربى شعره ونثره ومدى أهميته لدى الشعراء والأدباء ، ولعلى بذلك أكون قد ضوأت صفحة فى تاريخ هذا اللون وحقيقته ، وأبنت أنه دليل على رسوخ ملكة الإبداع لدى شعراء العربية وأدبائها ، ثم إن هذا الفن - كسائر الفنون البلاغية الأخرى - بحاجة دائمة إلى الفكر المتجدد والثقافة النابضة والجرأة فى الرأى إلى جوار ما يحمل من حبكة فنية .

هذا وبالله التوفيق

فهرس الآيات القرآنية

م	الآيـــــة	رقمها	السورة	صفحة
١	﴿أتجعلُ فيها مَن يُفْسِدُ فيهَا ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .	٣٠	البقرة	٥٢
٢	﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾ .	١٢٦	آل عمران	٥٢
٣	﴿ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾	١٠٣	التوبة	٥١
٤	﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾	٩١	هود	٣٤
٥	﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾	٥٣	يوسف	٥١
٦	﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾	٢٢	الأنبياء	٤٩
٧	﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾	١	الحج	٥١
٨	﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾	٥٣	الحج	٥٢
٩	﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾	٩١	المؤمنون	٥٠
١٠	﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ .	٨	القصص	٥٠

فهرس الشواهد الشعرية لحسن التعليل

م	الشاهد		قائله	رقم الصحيفة
١	نظر الصباح إلى صفاء جبينه	فتعلقت أنفاسه الصعداء	-	٥٨
	والليل فكر فى سواد فروعه	فتشبثت بمزاجه السوداء		
٢	لم يحك نائلك السحاب وإنما	حمت به فصبيبها الرحضاء	المتنبى	٢٢، ٣٠، ٤١، ٥٧، ٧٠
٣	ما به قتل أعاديه ولكن	يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب	المتنبى	٣٣، ٣٥، ٤٣، ٥٩
٤	ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا	إن السماء ترجى حين تحتجب	-	
٥	وماخفق أيكى غير رجفه أضلع	ولا نوح ورقى غير صرخه نادب	ابن خفاجة	٧٤
	وما غيض السلوان دمعى وإنما	نزفت دموعى من فراق الصواحب		
٦	وما سمى الغيث الهتون سحابة	سوى أنه من خجله يتسحب	ابن خفاجة	٧٤
٧	وأهوى الذى أهوى البدر ساجدا	ألست ترى فى وجهه أثر الترب		٣٩، ٦٠
٨	قالوا اشتكت عينه فقلت لهم	من كثرة القتل نالها الوصب	ابن المعتز	٥٨
	حمرتها من دماء من قتلت	والدم فى النصل شاهد عجب		
٩	أدميت باللحظات وجنته	فاقتص ناظره من القلب	أبو تمام	٧٥
١٠	وغزال ترى على وجنتيه	قطر سهميه من دماء القلوب	ابن الرومى	٧٥
	جرحته العيون فاقتص منها	بجوى فى القلوب دامى الندوب		
١١	قام هذا الروض يشدو مادحا	بلسان البلبل الزاهى سحابا	الشيخ محمد الخضر حسين	٧٧
	وتمادى غاليا فى مدحه	فحثت فى وجهه الريح ترابا		
١٢	أرى بدر السماء يلوح حينا	ويبدو ثم يلتحف السحابا	محمد بن هانىء	٦٣
	وذاك لأنه لما تبدى	وأبصر وجهها استحيا وغابا		
	قد طيب الأفواه طيب ثنائه	من أجل ذا تجد الثغور عذابا		
١٣	ولو لم تكن ساخطا لم أكن	أذم الزمان وأشكو الخطوبا	البحترى	١٦، ٢٨، ٣٤

م	الشاهد		قائله	رقم الصحيفة
١٤	سألت الأرض لم جعلت مصلى	ولم كانت لنا طهرا وطيبا	ابن رشيق	١٦، ١٧، ٣٦، ٤٠
	فقالت غير ناطقة لأنى	حويت لكل إنسان حبيبا		
١٥	لو لم تكن ريقته خمر	لما تثنى عطفه وهو صاح	أبو الحسن التهامى	٢٧ ، ٦٣
١٦	ورياض من الشقائق أضحت	يتهادى بها نسيم الرياح	ـــــ	٧٦
	زرتها والغمام يجلد منها	زهرات تفوق لون الراح		
	قلت ما ذنبها ؟ قال : مجيبا	سرقت حمرة الخدود الملاح		
١٧	علمتنى بهجرها الصبر عنها	فهى مشكورة على التقبيح	ابن سناء الملك	٦١
١٨	صبحته عند المساء فقال لى	ماذا الكلام ؟ وظن ذاك مزاحا	ـــــ	٦٠
	فأجبته إشراق وجهك غرنى	حتى توهمت المساء صباحا		
١٩	مغرم بالثناء صب بكسـ	ـب المجد يهتز للسماح ارتياحا	أبو طالب المأمونى	٣٣ ، ٤٠
	لا يذوق الإغفاء إلا رجا	ء أن يرى طيف مستميح رواحا		
٢٠	الريح تحسدنى عليك	ولم أخلها فى العدا	الصولى	٣١
	لما هممت بقبلة ردّت	على الوجه الردا		
٢١	لاموا على الوقاد فى حسنه	وحبه باللوم يزداد	الأمير مجد الدين بن تميم	٦٣
	لو لم يكن فى حسنه كوكبا	ما كان أمسى وهو وقاد		
٢٢	أهلا وسهلا بالمشيب فإنه	سمة العفيف وحلية الزهاد	ـــــ	٦١
٢٣	وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت	أتاح لها لسان حسود	أبو تمام	٦٩
	لولا اشتعال النار فيما جاورت	ما كان يعرف طيب عرف العود		
٢٤	لو لم يكن أقحوانا ثغر مبسمها	ما كان يزداد طيبا ساعة السحر	التهامى	٢٧ ، ٦٣
٢٥	موقف لو لم يكن نارا	لم تكن زرق عواليه شرر	--	٦٣
٢٦	أبا الهول ويحك لا يستقلـ	ـل مع الدهر شيء ولا يُحتقر	أحمد شوقى	٧٦
	تهزأت دهرا بديك الصباح	فنقر عينيك فيما نقر		
	أسال البياض وسل السواد	وأوغل منقاره فى الحفر		

م	الشاهد	قائله	رقم الصحيفة
٢٧	لم يزل جوده يجور على الما ل إلى أن كسا النضار اصفرارًا	ابن نباته	٧٥
٢٨	هزالنسيم غصون الروض فى سحر كما يهز بنانُ الغادة الوترا لذّ الخفيف على أذن السحاب أما تراه يحثو على أدواحها دررا	الشيخ محمد الخضر حسين	٧٧
٢٩	ومعذّر رقت حواشى وجهه فقلوبنا وجدا عليه رقاق لم يكس عارضه السواد وإنما نفضت عليه سوادها الأحداق	---	٧٦
٣٠	يا واشيا حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الغرق	---	٢٦، ٣٥، ٣٦، ٦٠،
٣١	لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق	---	٢٣، ٣٠، ٣٦، ٦٢، ٧٠
٣٢	قل للملول الذى تجنى وخان مـــن ملك رقى أحسن بى ـ لا عن اعتماد ـ غدرك إذ جاد لى بعتق	أسامة بن منقذ	٦١
٣٣	وحاربنى فيه ريب الزمان كأن الزمان له عاشق	---	٣١
٣٤	جزى الله الشدائد كل خير وإن جرعتنى غصصى بريقى وما شكرى لها إلا لأنى عرفت بها عدوى من صديقى	---	٦١
٣٥	فلا تنكرن لها صرعة فإن من فرح النفس ما يقتل	المتنبى	٤٢
٣٦	أبدى صنيعك تقصير الزمان ففى وقت الربيع طلوع الورد من خجل	القاضى الأرجانى	٧٦
٣٧	لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى	أبو تمام	١١، ٥٧، ٦٨
٣٨	يا ابن موسى فقد الحبيب على العيـ ـن قذاة وفى الفؤاد سقام كيف يصفولى النعيم وحيـــدا؟ والأخلاء فـــى المقابر هامُ	بشار بن برد	٢٧
٣٩	نفستهُم علىّ أم المنايا فأنامتهم بعنف فناموا علىّ وإلا ما بكاء الغمائم وفىّ وإلا مانياح الحمائم	ابن عمار	٧٤
٤٠	وعنى أثار الرعد صرخة طالب لثأر وهز البرق صفحة صارم قالوا الحبيب شكا - جعلت فداءه رمدا أضر بعينه كالعندم	ـــ	٧٦
٤١	فأجبتهم ما زال يفتك لحظه فى مهجتى حتى تلطخ بالدم ولو لم تصافح رجلها الثرى لما كنت أدرى علة للتيمم	ابن هانىء الأندلسى	٢٨، ٣٩
٤٢	فإن غادرت الغدران فى صحن وجنتى فلا غرو لم يزل منـــه وابـــل يهمى	ـــ	١٧، ٣٤

م	الشاهد		قائله	رقم الصحيفة
٤٣	علام تصدنى وأراك دوما	تميل مع الهوى يا غصن بان	عائشة التيمورية	٧٦
	رويدك قد قتلت من التصابى	وذاك دمى بأطراف البنان		
٤٤	إن يقعدوا فوقى لغير نزاهة	وعلو مرتبة وعز مكان	مسلم بن الوليد	٧٠
	فالنار يعلوها الدخان وربما	يعلو الغبار عمائم الفرسان		
٤٥	أما ذكاء فلم تصفر من فرق	إلا لفرقة ذاك المنظر الحسن	ابن الرومى	٧٦
٤٦	أتتنى تؤنبنى بالبكـــــا	فأهلا بها وبتأنيبهـــــا	أحمد بن محمد المعروف بابن ثوابه	٥٩
	تقول وفى قولها حشمة	ترانى بعين وتبكى بهـــا		
	فقلت إذا استحسنت غيركم	أمرت الدموع بتأديبها		
٤٧	قتل الدجى هذا النهار ودسه	تحت التراب مضرجا بدمائه	الشيخ محمد الخضرحسين	٧٧
	فخذوا من الشفق الشهادة إنه	لطْخ من الدم نال ذيل ردائه		
٤٨	زعم البنفسج أنه كعذاره	حسنا فسلوا من قفاه لسانه	أبو هلال العسكرى	٣٢، ٥٨
	لم يظلموا فى الحكم إذ مثلوا به	فلشد ما رفع البنفسج شانه		
٤٩	وأدهم يستمد الليل منه	وتطلع بين عينيه الثريا	ابن نباته السعدى	٣٢
	سرى خلف الصباح يطير مشيا	ويطوى خلفه الأفلاك طيا		
	فلما خاف وشك الفوت منه	تشبث بالقوائم والمحيـــا		
٥٠	عداتى لهم فضل على ومنة	فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا	---	٦١
	هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها	وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا		
٥١	وإنى لأستغشى وما بى نعسة	لعلّ خيالا منك يلقى خياليا	قيس بن الملوح	٣٣

* * *

فهرس

الشواهد الشعرية لما يلحق بحُسْنُ التعليل

م	الشاهد		قائله	رقم الصحيفة
١	إذا ما غزو بالجيش حلق فوقهم	عصائب طير تهتدى بعصائب	النابغة	٢٢
	جوانح قد أيقن أن قبيله	إذا ما التقى الجيشان أول غالب		
٢	ربى شفعت ريح الصبا لرياضها	إلى المزن حتى جادها وهو هامع	أبو تمام	٣٦، ٦٥، ٧١
	كأن السحاب الغرّ غيبن تحتها	حبيبا فما ترقأ لهن مدامع		
٣	رحل العزاء برحلتى فكأننى	أتبعته الأنفاس للتشييع	المتنبى	٦٥
٤	أيا شمعا يضىء بلا انطفاء	ويا بدرا يلوح بلامحاق	العلوى	٦٦
	فأنت البدر ما معنى انتقاصى	وأنت الشمع ما معنى احتراقى	اليمنى	
٥	تجهم العيد وانهلت بوادره	وكنت أعهد منه البشر والضحكا	ابن رشيق	٦٦
	كأنما جاء يطوى الأرض من بعد	شوقا إليك فلما لم يجدك بكى		
٦	ولقد ذكرتك والرماح نواهل	منى وبيض الهند تقطر من دمى	عنتره	٢٤
	فوددت تقبيل السيوف لأنها	لمعت كبارق ثغرك المتبسم		
٧	كأن حبين باتا طول ليلهما	يستمطران على غدرانها المقلا	محمد بن أبى زرعة	٦٦
٨	كأنى أذيب الصبح بالحدق التى	يقلبها وجدى وتلك سبائله	الشيخ محمد الخضر حسين	٦٦
٩	قتل الدجى هذا النهار ودسه	تحت التراب مضرجا بدمائه	الشيخ محمد الخضر حسين	٧٧
	فخذوا من الشفق الشهادة إنه	لطخ من الدم نال ذيل ردائه		

* * *

أهم المصادر والمراجع

١ - ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار - د . عبد العزيز الأهوانى ، ط الأنجلو بمصر ١٩٦٢ م .

٢ - الإتقان فى علوم القرآن - جلال الدين السيوطى ، ط مصطفى البابى الحلبى .

٣ - أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجانى ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى، نشر مكتبة القاهرة .

٤ - أصول البلاغة - كمال ميثم البحرانى ، تحقيق د . عبد القادر حسين ، ط دار الشروق .

٥ - الإيضاح - بغية الإيضاح - تحقيق عبد المتعال الصعيدى ، ط المطبعة النموذجية .

٦ - بحوث فى البلاغة والنقد - د . الشحات محمد أبو ستيت ، ط الأمانة سنة ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م .

٧ - بديع القرآن - ابن أبى الإصبع المصرى ، تحقيق د . حفنى محمد شرف، ط دار نهضة مصر القاهرة

٨ - البديع : تأصيل وتجديد - د . منير سلطان ، ط منشأة المعارف بالإسكندرية .

٩ - البديع فى شعر شوقى - د. منير سلطان ، ط منشأة المعارف بالإسكندرية .

١٠ - البرهان - محمد بن عبد الله الزركشى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار التراث بالقاهرة .

١١ - تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر - ابن رشد ، تحقيق محمد سليم سالم القاهرة ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م .

١٢ - التبيان - شرف الدين الطيبى : تحقيق هادي مطر عطية ،ط عالم الكتب بيروت .

١٣ - تحرير التحبير - ابن أبى الإصبع المصرى ، تحقيق د . حنفى محمد شرف القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م .

١٤ - التصوير البيانى - د . حفنى محمد شرف ،ط مكتبة الشباب بالمنيرة بالقاهرة .

١٥ - التصوير البيانى - د . محمد محمد أبو موسى ، ط مكتبة القاهرة ..

١٦ - تفسير ابن كثير ، ط دار الكتب العلمية بيروت .

١٧ - حسن التعليل فى البلاغة العربية - حسن سليم طنطاوى ، ط أولى ، مطبعة صادق سلامة بالمنيا .

١٨ - حسن التوسل فى صناعة الترسل - شهاب الدين محمود الحلبى ، ط الوهبية ١٣٥٥ هـ .

١٩ - خزانة الأدب وغاية الأرب - ابن حجة الحموى ، تحقيق عصام شعيتوط، الهلال بيروت .

٢٠ - الخيال وأثره فى الشعر العربى - الشيخ محمد الخضر حسين .

٢١ - الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى - د . طه مصطفى أبو كريشه .

٢٢ - الخصائص - ابن جنى ، تحقيق محمد على النجار الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م .

٢٣ - شرح عقود الجمان - جلال الدين السيوطى ط مصطفى البابى الحلبى .

٢٤ - شرح الكافية البديعية - صفى الدين الحلى - تحقيق نسيب نشاوى ، ط دمشق ١٤٠٣ هـ .

٢٥ - شروح التلخيص - ط عيسى البابى الحلبى .

٢٦ - الصبغ البديعى - د . أحمد موسى القاهرة سنة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م .

٢٧ - الطراز - يحيى بن حمزة العلوى ، ط المكتبة العربية ومطبعتها .

٢٨ - الفتوحات الإلهية - العلامة الجمل ، دار المنار القاهرة .

٢٩ - الفكر النقدى فى تراث عبد القاهر الجرجانى - د . محمود محمد لبدة، سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م .

٣٠ - كتاب طراز الحلة ، أحمد بن يوسف الرعينى - تحقيق د . رجاء السيد الجوهرى ، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية .

٣١ - لسان العرب - ابن منظور - ط دار المعارف بمصر .

٣٢ - المصباح - بدر الدين بن مالك ، تحقيق د . حسنى عبد الجليل . مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة .

٣٣ - المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى ، د . فتحى أحمد عامر ، ط منشأة المعارف بالإسكندرية .

٣٤ - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د . أحمد مطلوب ، ط المجمع العلمى العراقى - بغداد .

٣٥ - معجم مصطلحات النقد العربى القديم . د . أحمد مطلوب ،ط دار الشئون الثقافية العامة - بغداد .

٣٦ - معاهد التنصيص ، عبد الرحيم العباسى تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، نشر عالم الكتب بيروت .

٣٧ - معيار النظار فى علوم الأشعار - عبد الوهاب الزنجانى ، تحقيق محمد على رزق الخفاجى ، ط دار المعارف بمصر .

٣٨ - نفحات الأزهار على نسمات الأسحار - عبد الغنى النابلسى ، نشر مكتبة وهبة ، القاهرة .

٣٩ - نهاية الأرب ، شهاب الدين النويرى ص ٧ ، ط وزارة الثقافة والإرشاد القومى بمصر .

٤٠ - نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ، فخر الدين الرازى تحقيق د . بكرى شيخ أمين - دار العلم للملايين - بيروت .

* * *

فهرس الموضـــوعات

المقدمة ٣
المبحث الأول : قيمة حسن التعليل البلاغية ٩
المبحث الثانى : حقيقة حسن التعليل ومعناه ١٤
المبحث الثالث : أطوار حسن التعليل ١٨
المبحث الرابع : حسن التعليل فى ميزان النقد الأدبى ٣٨
المبحث الخامس : القرآن الكريم ٠٠ وحسن التعليل ٤٩
المبحث السادس : أقسام حسن التعليل ٥٤
المبحث السابع : ما يلحق بحسن التعليل ٦٥
المبحث الثامن : حسن التعليل والتشبيه ٦٧
المبحث التاسع : حسن التعليل فى الأدب العربى ٧٢
خاتمة واستنتاج ٨٠
فهرس الموضوعات ٩٢

رقم الإيداع : ٩٢٣١ / ٩٥

الترقيم الدولى : 977 - 00 - 9167 - 7